تفسير سورة

النازعات

بقلم

الشيخ حسين العايش البراك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبّرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أَإِنّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَإِذَا كُنّا عِظَامًا نَخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسّاهِرَةِ (١٤) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدّسِ طُوًى (١٦) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنّهُ طَغَى (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكّى (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبّكَ فَتَخْشَى (١٩) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (٢٠) فَكَذّبَ وَعَصَى (٢١) ثُمّ أَدْبَرَ يَسْعَى (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَى (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤) فَأَخَذَهُ اللّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (٢٥) إِنّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٢٦) أَأَنْتُمْ أَشَدّ خَلْقًا أَمِ السّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣) فَإِذَا جَاءَتِ الطّامّةُ الْكُبْرَى (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (٣٥) وَبُرّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (٣٦) فَأَمّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدّنْيَا (٣٨) فَإِنّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبّهِ وَنَهَى النّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنّ الْجَنّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السّاعَةِ أَيّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَى رَبّكَ مُنْتَهَاهَا (٤٤) إِنّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا (٤٥) كَأَنّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلّا عَشِيّةً أَوْ ضُحَاهَا (46)

صدق الله العلي العظيم

قوله تعالى (وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا)

هذه أقسام متعددة بصفات الملائكة حال امتثالهم لأمر الله تعالى في قبض الأرواح وتدبير أمور الكون ، فالنازعات هي الملائكة التي تنتزع الأرواح وتكون حال انتزاعها لها واصلة بها إلى نهاية المراد منها بذلك . وغرقا يراد به الإغراق والتشديد في النزع وهو بلوغ النزع إلى منتهاه .

الناشطات فيراد بها الملائكة القائمة بعملها في حال قوتها دون فتور ولهذا نعبر عن بعض الناس بقولنا نشط من عقال كأنه ربط بشيء ثم أطلق سراحه . وقيل إن المراد به إخراج روح المؤمن برفق وسهولة في حالة من نشاطها .

السابحات فهي الملائكة حال إسراعها في تنفيذ أمر ربها وهو استخدام متعارف يطلق على الخيل في عدوها أنها سابحة ويطلق كذلك على السريع في مشيه بأنه يسبح في سيره ، وقيل إن معنى ذلك هو الملائكة حال قبضها لأرواح المؤمنين فتخرجها من أجسادهم بسرعة وتوصل تلك الأرواح إلى جنات النعيم .

السابقات فيراد به أن الملائكة سبقت غيرها بالأيمان بالله وامتثال أوامره ، والأقرب أن المراد به ملائكة الموت حيث تسبق بروح المؤمن إلى ربها ، وهناك أقوال أخرى قد لا تتناسب مع السياق إلا بشيء من التأويل بخلاف ما أوردناه فإن سياقه متناسق .

قال السيد الطباطبائي رحمه الله إنّ السورة في صدد تبيان كيفية نزع الأرواح وانقسام طوائف الملائكة في قبضهم لها شدة وقسراً رحمة وتعذيباً ، و يريد رحمه الله أن يبين أنّ ما قيل في تفسيرها من أقوال لا يخلو عن غموض وإشكال ، والصحيح هو ما تقدم .

قوله تعالى (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا)

الفاء فاء التفريع ، أي أنها متفرعة على تلك الأقسام التي ذُكرَت ، ومعناه الترتب على صفة السبق ، فالملائكة يدبرون أمر الخلق بعد أن يكونوا قد سبقوا في الوصول إليه بمعنى أنهم في منتهى القرب عندما يأمرهم الله تعالى بأمر في تدبير الخلق كيف لا وقد قال تعالى (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)(يس:٨٢) وقال تعالى (لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) ولهذا مر معنى قوله تعالى (فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا) أي كأنهم عندما يؤمرون يكونون أقرب لامتثال أمره تعالى ، ومعنى كلامه يرحمه الله أن فاء التفريع دالة على تفرع السبق على السّبح ، وهناك مجانسة في الآيات الثلاث ، ومدلولها حينئذ أنّ الملائكة يدبرون أمر الله تعالى بعد أن يكونوا قد سبقوا إلى ذلك الشيء الذي يريده الحق أن يدبر من قبلهم فيسبقون إليه بعد أن سبحوا أي أسرعوا إليه عند نزولهم من الملكوت الأعلى .

ومعنى الآيات يشبه قوله تعالى (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ)(الرعد:١١) أي أن الملائكة معقبات من بين يديه ومن خلفه يتلقون أمر الله تعالى ، في كل مفردة من مفردات الكون ، وقال السيد الطباطبائي يرحمه الله والمعنى أنّ الملائكة ينزلون على الأشياء التي أُمروا بإحداث أمرٍ فيها وقد تجمعت عليها الأسباب وتنازعت فيها وجوداً وعدماً فبعضها يقتضي استمرار وجودها ، وبعضها الآخر يقتضي انتهائها وزوالها ، فما قضاه الله تعالى من الأمر أسرع إليه الملك المأمور به ، فإن أراد أن يرزق شخصاً تجمعت الأسباب لرزقه من حيث لا يحتسب ، والعكس صحيح أيضا ، إذا أراد الله تعالى أن يفقر شخصاً فقد تتوافر الأسباب التي تقتضي الغناء ، وهو يسعى إليها أيضا لكنها تتحول إلى عكس ما يريده تماماً ، لأنّ ملكوت الأشياء بيده تعالى

ولهذا فإن قوله تعالى (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا) يفصح عن أن ما يريده الله يتحقق ولا راد لقضائه .

والتدبير الكوني جعل الله تعالى له أسباباً بعضها يأخذ برقاب بعضها الآخر ، وكله يؤول إلى زوال ونهاية نظام هذا العالم المادي إلى القيامة والبعث ، والآيات جائية لتشرح أمرين:

❶ الأول كيفية التدبير على نسق محدد ومعين تقوم به الملائكة الذين يصدر إليهم أمر الله تعالى.

❷ الثاني أنّ هذا التدبير سيؤول إلى المعاد ، ورجوع الأشياء إلى الله تعالى ، قال تعالى (أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ)(الشورى:٥٣) وهو معنى قولنا (إنا لله وإنا إليه راجعون) فكأننا نتحدث عن المآل الذي يؤدي إلى عالم البعث والمعاد ، وكل الحقائق الكونية ومصيرها إلى المعاد ، وقد دللت على ذلك روايات واردة عن المصطفى ﷺ والأئمة من أهل بيته عليهم السلام ، والذي يفقه هذه الحقيقة هم الملائكة والجن والإنس وهم العقلاء .

حقيقة التوحيد

وهنا نتوصل إلى نتيجة جد هامة على ضوء آي القرآن الكريم ، وهي تبيان معنى التوحيد والمعنى لكون الإنسان موحدا ، وكذلك معنى الشرك ، لأن الإنسان إذا فقه ذلك سيعلم بالتوحيد الربوبي وبمعنى إسناد الخلق والأفعال إلى الله تعالى ، فإسناد كل فعل من الأفعال إليه تعالى يرتبط بفهم كيفية تعلق الفعل بالفاعل وهو في الاصطلاح الفلسفي على ثلاثة أقسام قريب وبعيد ومتوسط.

وإن كان الأمر بالنسبة للحق تعالى أعمق وأدق من ذلك ، لكن صاحب الميزان يمثل له بمثال رائع وجميل ، فيقول إذا أراد الإنسان أن يكتب كتابة ما ، وأخذ القلم فتارة نسند الكتابة إلى القلم ، فنقول كتب القلم ، وأخرى نسندها إلى اليد فنقول كتب بيمينه ، وثالثة نسندها إلى الفاعل أي إلى نفس الإنسان ، فنقول زيد كتب الكتاب دون إسناده إلى اليد ، ولا إلى القلم ، وفي هذا المثال نلحظ حيثيات متعددة:

❶ الأولى أنّ القلم آلة استعان بها الإنسان للكتابة.

❷ الثانية اليد وهي رغم كونها جزء من وجود الإنسان المادي غير أنها مسخرة لإرادته وفعله .

❸ الثالثة الإنسان وهو الفاعل حقيقة ، واليد هي آلة وواسطة أقرب في إرادة الإنسان من القلم ، إذن لما نلحظ الفعل الخارجي وهو الكتابة فأقرب شيء إليه في نظرنا القلم ، ثم اليد ، والبعيد هو إرادة الإنسان.

فعندنا ثلاثة أمور غير أنّ هذه الأمور ليست في رتبة واحدة بل هي مختلفة ويسمي العلماء هذا الاختلاف في الرتب بالاختلاف الطولي ، أما الاتحاد في الرتب فيسمونه بالترتب العرضي ، أي أنّ الأمور في عرض واحد وفي رتبة واحدة عكس الاختلاف الطولي ، فإن الرتب بعضها يأتي بعد بعضها الآخر ، وبعض المراتب متقدمة على بعضها الآخر ، وهناك مثال يقرب الصورة بنحو أوضح فيما إذا فتح جيش مدينة ما فإن الفتح ينسب إلى القائد تارة وللجيش تارة وإلى الأمير ثالثة ، فنقول فتح الأمير المدينة وفتح القائد المدينة وفتحها الجيش ، وكل هذه النسب الثلاث صحيحة لا ريب فيها ، لكن إرادة فتح المدينة في الرتبة الأولى للأمير ، وفي الثانية للقائد وفي الثالثة للجيش ، وهم ليسوا في رتبة واحدة ، بل مختلفين رتبة ، أما لو جاء جيشان وتعاونا على فتحها لأميرين مختلفين ،

فنسمي هذا بالاختلاف العرضي ، أي أنّ الرتبة متساوية بين الأميرين والقائدين والجيشين و على هذا الأساس نفهم معنى تدبير الله تعالى لمفردات الخلق ، فعندما نقول إن الله تعالى جعل الملائكة يتصرفون في الخلق ، و في عالم الآخرة وفي الدنيا بل وفي نقل الوحي الذي يتنزل على الأنبياء والرسل عليهم السلام قال تعالى (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ)(فاطر:١) فالملائكة هم رسل الله تعالى الذين يحملون أوامره تعالى ويتصرفون في الخلق وفي النشأة الآخرة والحساب والنفخ في الصور وما إلى ذلك من أمور ، أي أنّهم يتصرفون في كل مفردات عوالم الوجود ولهذا جاء في القران الكريم أن الله تعالى عندما يريد أن يعذب قوماً بخسف أو تدمير يرسل عليهم ملائكته فيجعلون عالي تلك القرية سافلها ، ويدمرون على أهلها تدميرا ، ومثال ذلك لوط عليه السلام عندما تعامل معهم كضيوف حلوا عليه فأوجس منهم خيفةً ، وفيما بعد أخبروه بأنهم رسل من عند الله تعالى وفي كلمح البصر تصرفوا في الزمان والمكان فدمروا القرية لأنّ قدراتهم فوقهما مع أنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً في الكون دون أمر الله تعالى فهم يتصرفون خلقاً ورزقاً وإحياءً وإماتة ، غير أنّ الخالق هو الله تعالى والرازق هو كذلك ، ولا ندري كيف يتنزل عليهم الأمر ويقول السيد الطباطبائي يرحمه الله إن الأمر على هذا النسق في جميع ما يجري في الكون لا تبديل لخلق الله قال تعالى(فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلا)(غافر:٤٣) وأمر الله تعالى في جميع عوالم الوجود واحد ، ويرتب يرحمه الله على هذا استنباطاً من آي القرآن الكريم حقيقته أنّ جميع أوامر الله تعالى على نسق واحد ويردف قائلاً أن جميع الأفعال في العوالم المختلفة تدار بواسطة الملائكة ، ويستدل بقوله تعالى (فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلا)(غافر:٤٣) غير أن ما قاله يرحمه الله

لا يشكل دليلاً وإنما هو بمثابة المؤيد لما توصل إليه ، لأن قدرة الله تعالى مطلقة ، وهيمنته عامة وهو القادر على إجراء أفعاله بواسطة أو دونها ، وليس معنى ذلك أنّ الله تعالى لا يفعل من دون واسطة كما يظهر لأنه القادر المطلق ، وقد يقال إن قوله تعالى (ولن تجد لسنة الله تبديلا) تبيان إلى عدم قدرة المتلقي من الممكنات للأمر الإلهي إلا بواسطة وليس ذلك تقييد لقدرة الله تعالى . وبتعبير الفلاسفة أنّ النقص في القابل وليس في الفاعل ، أي أن الذي يتلقى الفيض الإلهي لا يستطيع أن يتلقاه لنقص فيه فالنقص في القابل أما الفاعل وهو الله فقادر مطلق ، وردنا على ذلك هو أن جميع الموجودات الممكنة محدودة ولا تستطيع أن تتلقى أوامره تعالى والتفريق بين بعض الممكنات وبعضها الآخر في تلقي الأمر الإلهي يحتاج إلى دليل قاطع وما يدلل به من الأدلة لا ينهض بذلك وهو تعالى قادر على أن يجعل الملك يتلقى الفيض وقادر على أن يجعل غيره من الممكنات الأخرى تتلقاه ، فلا محدودية لقدرته تعالى ، وإن كان الأمر في هذه الرتبة لا يصل إليه العقل بنحو تفصيلي غير أننا نؤمن بأنّ قدرته تعالى غير محدودة وهو على كل شيء قدير (لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) لطيف في علمه وعالم في لطفه وعلمه ذاته .

ولعل السيد يرحمه الله يريد أن يتوصل إلى أن مجرى أفعال الحق تعالى بوسائط دائماً وإشكالنا على أن ديمومة ذلك ليست بتامة وما جاء من آيات كقوله تعالى (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا) يبين بعض الموارد فقط وهناك مثال ذكر في الروايات شاهد على هذا المعنى فعندما ألقي الخليل عليه السلام في النار التقى معه جبرئيل في الهواء وقد وضع في المنجنيق ، فعندما وضع الخليل عليه السلام في المنجنيق وقذف به في النار التقى معه جبرئيل في الهواء ، فقال: يا إبراهيم هل لك إلي من حاجة ؟ فقال إبراهيم عليه السلام أما إليك فلا ، وأما إلى رب العالمين فنعم ، فدفع

إليه خاتماً مكتوب عليه " لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ألجأت ظهري إلى الله ، أسندت أمري إلى الله ، وفوضت أمري إلى الله " فأوحى الله إلى النار كوني برداً وسلاماً) [1] فإبراهيم عليه السلام يعلم أنّ أوامر الله تعالى تأتي عبر الملائكة فالمدبرات أمرا وهو موحد ومع ذلك لا يرضى بأن تجري الأمور بواسطتهم ويريدها عليه السلام أن تأتي مباشرة من عنده تعالى دون وسائط ، هذا ما يفهم من الرواية والعقل لا مسرح له هنا خصوصاً مع وجود إطلاق لآي القرآن الكريم في تبيان القدرة .

وأما قوله تعالى (فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلا)(غافر:٤٣) فلا يدلل على العموم الذي يروم السيد الطباطبائي أن يثبته .

والخلاصة أنّ الملائكة تدبر أمر الخلق ، فتحيي وتميت ، وترزق وهي وسائط في الفيض الإلهي غير أنّ الفاعل الحقيقي هو الله كما أنّ القلم فاعل غير مستقل للكتابة ، واليد فاعل للكتابة كذلك ، إلا أن ذات الإنسان هي الفاعل للكتابة ، واليد والقلم وسائط لتلقي قدرة الإنسان والهيمنة التامة في الكتابة للإنسان ، ولهذا جاء قوله تعالى (بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ)(الأنبياء:٢٦-٢٧) أي أنهم يفعلون الأمر دون استقلال لهم في ذلك والله تعالى لو سلب القدرة من الملك لما كان له تأثير . وكذلك غير الملائكة إذا سلبهم الله تعالى القدرة فلن يستطيع أن يفعل شيئاً ولا أحد يمتلك القدرة بالاستقلال وهذا المطلب قاعدة عامة وحقيقة الفعل الربوبي هو أن الله تعالى بيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير ، وإذا نسب الفعل إلى غيره تعالى فذلك ينبئ عن إذنه تعالى ومن اعتقد أن الملك يرزق استقلالاً من دون إذنه تعالى فهو مشرك . و أما من اعتقد أن الأمر بيد الله والملك يدبر الأمر بأذنه ولا استقلال

١ تفسير علي بن إبراهيم: ٢ / ٧٣

له في التدبير فقد وصل إلى عين التوحيد ، ذلك أن الملك هو عين الفقر لكونه وجود ممكن لا شيئية له إلا بالله ولولا أنّ الله تعالى أعطاه لما استطاع أن يحرك ساكناً وجميع ما لديه من قدرات من الله تعالى .

معنى التوسل بالأنبياء والأئمة عليهم السلام

التوسل بالمعصوم عليه السلام هو أن نطلب من الله بجاهه ، فالمتوسل يقول إلهي بحرمته وبجاهه أتوسل إليك ، و إذا نسب الفعل إلى نبي أو إمام دون استقلال فلا إشكال في ذلك وما ورد في هذا الشأن عن إسناد الفعل إلى المعصوم عليه السلام يراد به هذا المعنى الذي هو جائز لأنّ الرسول صلى الله عليه وآله يغنينا ، ولكنه ليس بيده ملكوت كل شيء ، بل هو عبد من عباد الله تعالى وفي التشهد - أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله - إظهار لعبوديته صلى الله عليه وآله والطلب منه صلى الله عليه وآله بأن يغنينا كالطلب من الجيش أو من قائده أن يفتح المدينة مع أن الأمر بيد الأمير وليس بيد قائد الجيش أو الجيش . نعم للرسول صلى الله عليه وآله رتبة وجودية ، لكنه لا يملك شيئا استقلالا بل الأمر كله لله تعالى ، غير أن الإسناد إليه صلى الله عليه وآله صحيح ، وقد جاء في آي الذكر الحكيم قوله تعالى (وَمَا نَقَمُوا إِلا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ)(التوبة:٧٤) فكيف يغني الرسول مع أنه عبد من عباد الله ، وجاء عنه صلى الله عليه وآله قوله (إذا سألت فاسأل الله) وهكذا الأمر في عيسى عليه السلام يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله وله رتبة وجودية ، ولكنه لا يستقل بالتصرف في قبال الله تعالى .

إذن القرآن الكريم يفصح عن حقيقة جد هامة هي أنّ الملائكة وسائط في التدبير ، في عوالم الخلق المختلفة ، عالم النشأة المادية ، وعالم ما بعدها في القيامة والحشر والبعث والحساب وما إلى ذلك من أمور ، فكل مفردة من

مفردات الكون ترتبط بتدبير إلهي بواسطة من الوسائط ، والواسطة قوة خفية غير مدركة وهي من الغيب الذي نتعرف عليه عن طريق إخبار الوحي ، أي الأنبياء والرسل يخبروننا عن هذه القوى الخفية وهيمنتها على مفردات الكون ، والإيمان بالقوى الخفية جزء من إيمان المؤمن ، أي أنه إن لم يؤمن بالملائكة لا يكون مؤمناً ، قال تعالى (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيه مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)(البقرة:٢٨٥) و الآية مفصحة بأنّ الإيمان بالملائكة هو كالإيمان بالكتب والإيمان بالرسل ، والإيمان بالله تعالى ، وإذا أنكر الإنسان ذلك لم يكن مؤمناً ، فعلى المؤمن أن يصدق بأن الملائكة وسائط بينه تعالى وبين الأشياء بدءً وعوداً ، بمعنى أنهم أسباب للحوادث فوق الأسباب المادية في عالم الشهود . والإنسان يدرك تأثير الأشياء حساً فهو يدرك تأثير الماء في النبات ، وأشعة الشمس فيه أيضاً وتأثير حركتي المد والجزر بواسطة القمر ، لكنه لا يدرك تأثير الملائكة في تكامل الإيمان للمؤمن . نعم يرى ارتقاء المؤمن في كماله لكنه لا يدرك ذلك بالبصر لأنّ الملائكة وجودات غير مادية بل مجردة ، تؤيد المؤمن مادام سائراً في السراط السوي ، جاء في رواية حنظلة التميمي الأسيدي ، أن النبي صلى الله عليه وآله قال: يا حنظلة ، لو كنتم تكونون كما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة على فرشكم أو في طرقكم .ويظهر من الحديث أن تأييد الملائكة عام يشمل جميع المؤمنين ولا يختص بالأنبياء والرسل كما تصور بعض ، نعم هناك وحي خاص للأنبياء والرسل لا يشترك معهم غيرهم فيه وهناك وحي عام يشمل جميع المؤمنين قال تعالى (وَأَوْحَيْنَا إلى أُمِّ مُوسَى)(القصص:٧) وقال تعالى (فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا) (مريم: ١٧-١٩)

وقد أفصحت الروايات بأن الملائكة تحدثت مع الصديقة الزهراء عليها السلام بكلام كثير جمع في كتاب يسمى (مصحف فاطمة) . نعم قد يقال إن أم موسى ومريم والصديقة الزهراء بلغوا من الكمال درجة لا يتاح لغيرهم أن يصل إليها ولهذا أوحي إليهنّ ، لكن الأمر ليس كذلك فإن تأييد المؤمن بالملائكة دللت عليه روايات متعددة والرواية المتقدمة ذكرت ذلك . بل غير الإنسان بنحو يغاير المعنى الذي يؤيد الإنسان قال تعالى (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ).

ويظهر من آي الذكر الحكيم أن الملائكة تقوم بأعمالها الموكلة بها وهي في حالة من التسبيح والتقديس والعبادة لله قال تعالى(وَالصَّافَّاتِ صَفًّا)(الصافات:١) أي أنها حال اصطفافها تقوم بأعمالها في حال سجود وركوع وعبادة له تعالى ، لأنها تمتلك القدرة الكبيرة من الله وكل من يمتلك القدرة يقوم بأعمال كبيرة ومتعددة في آن واحد قال تعالى(أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ)(النمل:٤٠) ، ومن الواضح أن آصف جاء بعرش بلقيس بالملائكة والإنسان إذا ارتقى معنوياً تمكن من الهيمنة على بعض القوى الخفية وقد أصّل الفلاسفة قاعدة أن (النفس في وحدتها كل القوى) بمعنى أنّها إذا تكاملت تكون قادرة على أن تقوم بأعمال متعددة في آن واحد .

مقامات الملائكة

للملائكة مقامات متفاوتة في الرتبة فبعضهم أعظم من بعضهم الآخر قال تعالى (وَمَا مِنَّا إِلا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ) وهم كالرسل عليهم السلام قال تعالى (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ)(البقرة:٢٥٣) . بمعنى أن بعضهم له هيمنة وإطاعة فملك الموت له أعوان كثر وبعضهم يمتثل أوامر

بعضهم الآخر، أي أن هناك توسط بين المتبوع والتابع في إيصال أمر الله تعالى كتوسط ملك الموت في أمر بعض أعوانه بقبض روح من الأرواح وجميع التأثير يرجع إلى الله تعالى وإذا سلب القدرة من أي شيء انتفى تأثيره والقدرات الخارقة التي كانت لموسى وعيسى ونوح وإبراهيم عليهم السلام إنما هي منه تعالى ولا يملكون تلك القدرات استقلالاً.

إذن التوحيد القرآني ينفي الاستقلال عن كل شيء من كل جهة فلا ملك ولا نبي ولا رسول ولا إمام يؤثر بالاستقلال قال تعالى ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنَ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (الإنسان - الآية ٣٠).

قوله تعالى ﴿يَومَ تَرجفُ الراجِفَة تَتبَعهَا الرادِفَة قلوب يَومَئِذٍ وَاجِفَة أَبصَارهَا خَاشِعَة يَقولونَ أَإنا لَمَردودونَ فِي الحَافِرَة﴾

يستبعد الإنسان أن يحشر مرة أخرى بعد موته، خصوصاً إذا تلاشى وجوده المادي، وعادت جثته إلى عناصرها الأولية وانمحى هيكله فأصبح عظاماً نخرة قريبة من التفتت، فإنه يستبعد في هذه الحالة أن يرجع حياً، وهذا الاستبعاد ورد في أكثر من مورد في القرآن الكريم، قال تعالى ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾(يس:٧٨-٧٩) .

وقال تعالى ﴿ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً قَالُوا تِلْكَ إذا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ ويرتبط الموقف ههنا بالنفخ في الصور، فهناك نفختان، نفخة للإماتة، ونفخة للإحياء، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ تبيان للنفختين وهناك قول آخر هو أنّ الراجفة هي الأرض عندما تُدك وتنسف الجبال، وأما الرادفة فهي تلاشي السماوات، بمعنى أن النظام الكوني في الأرض ينمحي أولا ثم يتبعه

تلاشي السماوات ، فعندنا معنيان الأول هو تبيان النفختين والثاني هو تلاشي النظام الكوني بعد النفختين .

قوله تعالى (قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ)

أكثر الخلق الذين أنكروا المعاد ، أنكروا وجود حياة أخرى بعد الموت ولهذا يصابون بحالة من الذهول ، وحالة من الانكسار - ذهول مقرون بالانكسار- والله تعالى عندما يبعث الموتى من القبور ويحشرهم إلى عرصة القيامة يصابون بهذه الحالة ، ويتعجبون قائلين (أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ) أي ألنا كرة أخرى بعد أن تلاشت عظامنا وأصبحنا رميماً وهو استفهام فيه من التعجب الكثير ، إذ أن الإنسان يتعجب من الأمور التي تحدث نادرا ، وتصحبها قدرات خارقة كالحشر والنشر والإحياء ، والبعث من القبور ، فهي حالات توجب الذهول ، وفيها ظهور في إبداع القدرة الإلهية ولكون الإنسان يستبعد ذلك فإنه عندما يدرك قدرة الله تعالى اللامتناهية يزول استبعاده ويوقن أنّ الله تعالى على كل شيء قدير . والمعنى الذي أوردناه هو أحد الوجهين في فهم الآية ، وهناك وجه آخر لها هو أنها استفهام للكفار في الدنيا بمعنى أن غير المؤمن يستبعد عودته بعد الموت ويستفهم ساخرا بقوله (أَ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً) (تِلْكَ إِذا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ) أي هل لنا رجعة ؟! فإذا قيل لهم نعم قالوا أي رجعة فيها خسران ، وسياق الآيات يتبين منه ما تقدم من وجود نفختين وتأثيرين متتابعين هما : تلاشي الأرض وتهاوي النظام الكوني ثم حصول حالة من اضطراب القلوب عند البعث .

وقوله تعالى (قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ) بمعنى مضطربة في حالة ذهول أما قوله (أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ) فالخشوع للقلب لكن الله تعالى يصف هنا الأبصار بأنها خاشعة ولعل المراد به أن خشوع القلب يظهر أثره على الإبصار

فيذرف الكافر دموع الحسرة والندامة بمعنى أنه في حالة من الذهول والانكسار والخشوع الظاهر على المحيّا وبالذات على عينيه ، وكلا التعبيرين يدللان على حالة الاضطراب والانكسار للذين لم يؤمنوا بالله تعالى وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر عندما تكون الحقيقة ماثلة أمامهم يعيشونها وجداناً ويقيناً . وشبيه هذا يحصل في الدنيا فإذا كذّب الإنسان بشيء واستبعده ثم عاشه وجداناً فإنه يصاب بحالة من الذهول والانكسار.

قوله تعالى (يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ)

الرد في الحافرة له معان من أهمها الرجوع إلى نشأة أخرى ، والحافرة تعبير آخر عن وجود نشأة ثانية ، وفي اللغة الحافرة أول الشيء ومبتدأه ، أي أءنا لمردودون إلى ما كنا عليه أولا ، وهو تعبير عن الرجوع إلى الحالة الأخرى ، وخلاصته أءنا لمردودون على ما كنا عليه أولاً ، والاستفهام للإنكار ، ويراد به استبعاد ذلك وأنه بعيد لا يمكن أن يتحقق وقد يكون الاستفهام للتعجب أي أنهم يتعجبون كيف يرجعون بعد أن رُمّت العظام إلى ما كانوا عليه أولاً .

إذن الاستغراب والإنكار ناتجان عن:

١) الربط بالحال التي كان عليها الجسم المادي .

٢) أو ناتج عن عدم المعرفة بأنّ الله على كل شيء قدير ، لأنه يستعبد أن تكون قدرة الله تعالى إلى حد أن يحيي العظام النخرة التي رمت وتلاشت ، ولذلك تكرار الاستفهام لتأكيد الاستبعاد فلو كانت الحياة بعد الموت مستبعدة فهي مع فرض نخر العظام وتفتت أجزاءها أشد استبعاداً ، فهم ينكرون المعاد ، وفي عقيدتهم أنّ الإنسان ليس له حياة أخرى وعندما يرون شيئاً آخر دالاً على الاستبعاد وهو تلاشي

عظام الإنســـــان فانهم يؤكدون به اســـــتبعادهم أي أنهم يرون أن الاستبعاد له أساس يقوم عليه هو تفتت العظام وتلاشيها .

والنخر هو البلاء والتفتت يقال نخر العظم ينخر نخراً بمعنى تفتت و وصل إلى قريب التلاشي .

ومعنى قولهم (قَالُوا تِلْكَ إِذا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ) أن الرجوع يؤدي إلى الخسران لأنّ الفوز لمن آمن وعمل صـــالحاً ، أما من كان طالحاً وتجرد عن الإيمان فكرّته ورجوعه كرة خاسرة ، وهو إخبار منهم بأنّ رجوعهم لا يؤدي إلاّ إلى الخسران .

والكرة هي الرجعة وعد الكرة خاســـرة لا يرجع اليها بل إلى حال المتصـــف وهو الراجع ، أما إذا كان الراجع من الذين آمنوا وعملوا الصـــالحات (فطوبى لهم وحســـن مئاب) . إن الله تعالى خلق الخلق وكتب على نفســـه أن يرجعه كرة أخرى ويحاسب الناس على أعمالهم لعدله تعالى .

قوله تعالى (فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذا هُم بِالسَّاهِرَةِ)

تؤكد الآية المباركة على مســـألة العودة إلى الله وأن الرجعة إلى عرصـــة القيامة في غاية السهولة ، فهي زجرة واحدة ، أي نفخة واحدة ثم يعود الخلق إلى مكان محدد ، وليس كما تصور الكفار بأن رجوع الخلق إلى الله مستحيل.

وعبر بـــــ(زجرة) وهو تعبير فيه شيء من إلفات نظر الإنسان إلى أنّ العودة فيها زجر باعتبار ما يرافقها ولعل ذلك لكون الكثير من منكري المعاد لا يقبل أن يعود لو خلي وطبعه ولكن الأمر يأتي بنحو قهري والتعبير فيه إيماءة إلى هذا المعنى ، أي أنهم لا يملكون لأنفســـــهم إرادة في قبال الإرادة القاهرة لله تعالى في

إرجاعهم إلى عرصة واحدة هي ساحة القيامة ، فتشرع تلك العظام الناخرة التي تصور الكفار أنها غير قابلة للعودة في الرجوع إلى حالتها الطبيعية.

و الزجرة بمعنى الصيحة في شدة ، ويراد بها النفخة الثانية للصور ، وزجرة واحدة بمعنى أن الأمر لا يحتاج إلى أكثر من إبلاغ واحد من عند الله تعالى للملائكة الذين اتصفوا بالأوصاف السابقة ، وهي كالنفخ قال تعالى (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ)(الزمر:٦٨)

و يتبين من الآية المباركة وجود قسم من الخلق لا يصاب بالصعق وهم النبي وأهل بيته عليهم السلام فهم أكرم وأقرب الخلق إلى الله تعالى ، وهم مصاديق الآية وقد جاء ذلك في رواية [١] أنهم المقصودون في قوله تعالى (أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ)(ص:٧٥) أي ما منعك من السجود هل استكبرت عن طاعة الله أم كنت من الذين لم يشملهم السجود لآدم وهم محمد وآل محمد عليهم السلام فهم في رتبة لا يصعقون بالنفخ في الصور ، ولا تشملهم الإماتة ، وهم في رتبتهم الوجودية لم يؤمروا بالسجود ، إلا أن خروجهم بالتخصص لا بالتخصيص لكونهم المسجود لهم حقيقة .

والساهرة من السهر وهو الأرق ، وقيل لأرض القيامة الساهرة لذهاب النوم عن العيون لما يصاب به الخلق من أهوال مرعبة ، فهم في حالة من المشقة والعنت من أهوال القيامة و تطلق الساهرة أيضا على الصحراء ، ولعله لما فيها من الخوف وانعدام الأمن .

١ البرهان في تفسير القرآن المؤلف : البحراني ، السيد هاشم الجزء : ٤ صفحة : ٦٨٤

قصة النبي موسى عليه السلام وفرعون

تتحدث الآيات المباركة (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى فَكَذَّبَ وَعَصَى ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى فَحَشَرَ فَنَادَى) عن قصة موسى عليه السلام وفرعون ، من كون فرعون يمثل الطغيان والاستكبار والعلو ، وموسى عليه السلام يجسد الهداية والعبودية لله تعالى والسير على الصراط المستقيم ، وهما خطان لهما امتداد طويل فمنذ بدء البشرية إلى يوم القيامة ، هناك من يسير في طريق الحق وهناك من يتجبر ويتعدى على الآخرين ، ويختلف الطغاة في طغيانهم وجبروتهم ، والإمكانيات التي لديهم ، وقصة موسى وفرعون تبين الأنموذج الأعلى في الطغيان ، فهناك إنسان تتوافر لديه الإمكانيات الكبيرة من الملك والثروات قال تعالى(وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ)(الزخرف:٥١)

وبالإضافة إلى ذلك فهناك الإمكانيات العلمية حيث وجدت الهندسة المعمارية المتقدمة ، كما يشهد بذلك بناء الأهرامات وكذلك التقدم في علم الكيمياء ، وتحنيط الأجساد (المومياء) وهي أنموذج لذلك ، حيث لم يستطع العلم الحديث أن يفك الشفرة العلمية لها غير أن كل تلك الإمكانيات سخرت في الطغيان ، والتعدي على حقوق الآخرين .

من الواضح أن من بيده الملك والقدرات يمكن أن يسخَّر ذلك في إقامة العدل ، ويمكنه أن يجعل قدراته مُسخَّرة في الظلم والطغيان فيُحمد أو يذم ، وقد أثنى النبي صلى الله عليه وآله على كسرى لكونه من الحكام الذين ساروا بالعدل ، روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال (ولدت في زمن الملك العادل أنوشيروان) [1] وقد أشاد

[1] بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ١٥ - الصفحة ٢٧٦

ﷺ بالنجاشي ملك الحبشة لاتصافه بالعدل ، إذن هناك من يملك ويسير بالعدل والإنصاف وهناك من يظلم الناس حتى وإن كانت سلطته محدودة كمن يتسلم منصباً رفيعاً ويظلم من تحته أو يرزق جاهاً عريضاً فيطغى ، ولعل من أروع أمثلة العدل مع السعة في السلطان ملك داود وسليمان عليهما السلام حيث توافرت لهما الإمكانيات الكبيرة خصوصاً لسليمان عليه السلام لكنه كان في منتهى التواضع والاستقامة ، و كذلك ذي القرنين ، الذي تحدث عنه القرآن الكريم . و إن كان الأغلبية لمن يتوافر لديه المال أو يستغني في جهة محددة أن يطغى ، قال تعالى (كَلا إِنَّ الإنسان لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)(العلق: ٦-٧) وقد مثّل فرعون نهاية الطغيان حيث ادعى أنه الإله الأعلى قال تعالى حاكياً عنه(فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)(النازعات:٢٤) ، و الإنسان بطبيعته عندما يتوافر لديه ما يدعوه للهداية وما يدعوه للضلال والطغيان قد يختار أحدهما لأن له القابليتان قال تعالى (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)(البلد:١٠) أي جلعنا له قابلية الهداية و قابلية التمرد والطغيان والاستعلاء والتعدي على الآخرين . ومن أفضل الطرق الموجبة للهداية الأسلوب الجميل في إيصال الحق إلى الضالين والمرونة والحكمة مع التدليل بالبراهين ، وإثارة بعض المنبهات الوجدانية الموجبة لميل الضال إلى الخير كذكر الصفات الجميلة الطيبة التي يتصف بها الإنسان في ذاته والتنبيه على مسألة المعاد والانتقال من هذه الدار إلى عالم الآخرة.

وهناك نمط آخر من الطغيان هو الطغيان المحدود كأن يطغى الإنسان فإذا ذكر له الأنموذج الأعظم للطغيان وكيف حل به العذاب في الدنيا قبل الآخرة قد يرعوي ويعود إلى الرشد وقد قص علينا القرآن خبر موسى وفرعون ليرشدنا إلى التعامل الأمثل مع من يطغى بدرجة أقل من فرعون .

قوله تعالى (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى)

إن موسى عليه السلام أثناء رجوعه من مدين ، جعله الله تعالى نبياً وأنزل عليه الوحي قال تعالى (إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى)(النازعات:١٦) طوى اسم للوادي وهذا أحد الاحتمالات في طوى وقيل هو إشارة إلى أنّ موسى عليه السلام طوى المنازل التكاملية المعنوية التي ارتقت بها نفسه و أوصلته إلى تلك الدرجة في القرب من رب العالمين ، ولكن الأقرب أنّ طوى اسم للوادي.

وقد كلفه الله بالرسالة ليذهب إلى فرعون الذي وصل إلى الدرجة العليا في الطغيان وقد تعامل عليه السلام بالأدب الإلهي مع فرعون ، وعلى من أراد أن يدعو الخلق إلى الله أن يقتدي بأسلوبه لاتصافه بالمرونة والحكمة واللين قال تعالى آمرا له عليه السلام (فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى) أي أعرض عليك يا فرعون الهداية وإخراج نفسك من ذلك التلوث الذي ارتمستَ فيه إلى الطهارة والتزكية .

لقد طرح القرآن الكريم التزكية وجعلها مبدأ للتكامل والوصول إلى الله وأبان أن التلوث مهما بلغ في دركاته فإن الإنسان قادر على انتشال نفسه منه ، وأن مسار من يزكي نفسه ويطهرها من الأدناس أن يهتدي إلى الله قال تعالى(وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى) وأن الهداية توجب الخشية من الله لأنها تستلزم معرفته وبالتالي الخضوع والخشوع له و هي ما يحصل لمن عرف الله وآمن به في صلاته قال تعالى (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)(المؤمنون:١-٢) ويتضح من ذلك أن التطور في الجانب المعنوي مرهون بالتزكية ، وهي مقدمة تهيئ أرضية الإنسان إلى الوصول إلى الله تعالى والخشية منه ، إذن هناك أمران:

الأول أن من تزكى سوف يصل إلى الله تعالى ، وأن قول موسى لفرعون إنّ ادعاءك الربوبية يحتاج أن تقلع عنه كي تصل إلى الخشية.

الثاني أن التزكية لا بد أن تنبع من ذاتك بمعنى أن لا تكون مقسوراً و مجبراً عليها ، وأما إذا كانت غير نابعة من ذاتك فإن الاستفادة منها قليلة ، وهذا مطلب غاية في الأهمية يرتبط بمبدأ الاختيار للإنسان بمعنى أن تنبثق الهداية من خلال إرادة الإنسان وتزكيته لنفسه .

برامج الأنبياء عليهم السلام

للرسل والأنبياء برامج من أهمها مجابهة الطغاة ، فيقفون أمام الطغيان لئلا يستشري فالطغاة يمارسون الطغيان إما بالقول أو بالفعل بمعنى أنهم تارة يفصحون عنه ويظهرونه كقول فرعون (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) أو بالفعل فلا يظهرون ذلك قولاً وإنما يمارسونه فعلاً فيأتي الأنبياء والرسل عليهم السلام ليذكروا الطغاة بالله تعالى ويلفتوا انتباههم إلى نعمه عليهم وهو معنى قوله تعالى (وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى) فهم : **أولاً** يدلون الخلق على الله تعالى ، **وثانياً** يذكرونهم بالنعم والآلاء لتحصل لهم الخشية فمن علم وتذكر خشي قال تعالى(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)(فاطر:٢٨) . **وثالثاً** هو أن الأنبياء والرسل يجسدون المرونة واللطف ولا يتبعون الأساليب العنجهية بل يسيرون باللين والرفق للتأثير على الغير ، وقد أمرهم الله بذلك قال تعالى (فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أو يَخْشَى)(طه:٤٤) روي عن الإمام الباقر عليه السلام (إن الله عز وجل رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف) [1] وإذا تعامل الأنبياء بالشدة فذلك من أجل وضع الأمور في نصابها والوقوف ضد من يعيث في الأرض فساداً وقد جاء هذا في قوله تعالى (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ)(الفتح:٢٩) ،والشدة هنا ليست عنفاً ، وإنما هي إظهار للقوة لئلا يطمع

١ الكافي: ٢ / ١٢٠ / ١٤ وص ١١٩ / ٥ وص ١٢٠ / ١٢

الأعداء فيهم ويتصـــورون أنهم ضـــعفاء فهم عليه السلام وبالرغم من وجود رفق ولين ومرونة لديهم لكنهم في شدة وعزيمة ومنطق رصين لحسم الأمور .

قد يتصـــور بعض الناس أن الرفق واللين يتنافى مع الرجولة والقوة ، لكن الأمر ليس كذلك فالدعوة إلى الله لابد أن يحكمها المنطق ويقترن بها الرفق واللين وهو ما يتقبله طبع الإنســـان ويؤدي به للاذعان إلى الحق ولهذا ترتبت النتائج الكبيرة على دعوة المصـــطفى صلى الله عليه وآله للناس كافة ، وقد أفصـــح عن ذلك الذكر الحكيم قال تعالى (وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)(آل عمران:١٥٩) فالدعوة إلى الله وبيان الحقائق يعتمدان على المنطق الرصـــين وقوة البيان والتأييد من عند الله تعالى وهذا ما قام به الأنبياء والرســـل والأئمة عليهم السلام حيث اقترنت أقوالهم وأفعالهم بالبرهان القاطع والدليل الناصع .

إيضاح وتتمة

إن الله تعالى يريد الخير والرحمة لجميع عباده وهذه الرحمة فرع عن رحمانيته تعالى التي تعم وتشـــمل الوجود كله غير أن البعض لا يريد الخير لنفسه استكباراً على الله تعالى فتنقطع عنه الرحمة . ودعوات الأنبياء والرسل عليهم السلام منبثقة عن رحمة الحق الرحمانية والرحيمية ولهذا مارســـوا الرفق واللين مع إقامة الحجج والبراهين وترتب على ذلك أن الله تعالى نجّاهم من المحن والكرب التي ألمت بهم ، فنوح عليه السلام نجاه الله تعالى من الطوفان وإبراهيم عليه السلام أنجاه الله تعالى من النار ، وموســـى عليه السلام أنجاه الله تعالى من فرعون وكيده وأنجاه الله أيضـا من جهل الأكثرية من بني إسـرائيل ، ويوسـف عليه السلام أنجاه الله تعالى من إخوته ، وقد برهن جميعهم عليهم السلام على حقانيتهم بمعاجزهم التي لا يســـتطيع المجتمع إلا أن يذعن بحقانيتها قال تعالى (فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى) وهي

العصـــا التي كان يتوكأ عليها موســـى عليه السلام ويهش به على غنمه ويحقق بها مآربه الأخرى . وكان له عليه السلام عدة من الآيات فيده تتحول إلى قنديل مضـــيء ، ويدعو الله تعالى فيســـــتجيب له لأحياء الموتى الذين طلبوا أن يروا الله جهرة فأخذتهم الصـاعقة قال تعالى (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصـــــاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) غير أن أعظم آية له عليه السلام العصا التي تتحول إلى ثعبان بسرعة كلمح البصر لتدلل على عظمة وقدرة الله تعالى وصدق دعوة موسى عليه السلام ، وذلك هو ديدن الأنبياء والرسل عليهم السلام في البرهنة على صدقهم . وأعظم معجزة وأقوى برهان ما جاء به سيد الخلق صلى الله عليه وسلم وهو القرآن حيث لا تستطيع البشرية جمعاء أن تأتي بآية واحدة من مثله.

قوله تعالى (فَكَذَّبَ وَعَصَى ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى)

الآيات الكريمة توضـــح أن الجهد الذي يقوم به الأنبياء قد لا تترتب عليه النتائج المرجوة في هداية الطغاة ، فالأســـــاليب الرائعة والجميلة قد جُبهت بالرفض والعناد والتكذيب بل والمحاربة ، فهناك أســـــلوبان في مواجهة الدعوة الإلهية:

الأول التكذيب

الثاني المحاربة واستنفار جميع القوى من أجل القضاء عليها .

وقد اتخذ فرعون كلا الأسلوبين فانكر دعوة موسى عليه السلام وحشد كل الأساليب لمحاربته.

التكذيب أساس رفض الحق ومحاربته

أفاد علماء الأخلاق مطلباً هاماً هو أنّ الإنسان في رقيه وتكامله لا ينبغي أن يكذب بالدعوة التي يسمعها لأنه إذا كذّب وجحد صعب عليه قبول الحق إذ يريد أن يدلل على رأيه الباطل ليثبت صحة ما يرتأيه ، فالتكذيب أساس للرذائل خصوصاً لمن يمتلك الجاه والقدرة ويتجبر في طغيانه كفرعون إذ يصعب عليه أن يرى نفسه كسائر الناس ، فهو يدعي أنه الإله بل هو الإله الوحيد كما ذكر ذلك عنه القرآن قال تعالى (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلا مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي) رغم أن السلطنة والقدرة هي اعتبار يزول بمجيء ملك غيره لكن الطاغي لا يلتفت إلا إلى الحالة التي هو عليها وينسى ما يخبئه له المستقبل ولهذا (فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى) .

وأما محاربة الحق ومجابهته فكانت بالإدبار عنه والسعي لأماتته (ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى) وذلك أن الإنسان إذا صدق بالدعوة سيكون في حالة إقبال عليها ، وأما إذا كذب بها سيكون في حالة إدبار عنها ويسير في مسار مضاد لها تماماً.

والتكذيب له درجات جسّد فرعون أعلاها ولهذا (فَحَشَرَ فَنَادَى) ومعنى حشر جاء في سورة الأعراف في قوله تعالى (أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ) أي أمهله و أجمع الناس من ذوي القدرات للرد عليه واستخدم بقية الناس من العاديين مشجعين لذلك قال تعالى (وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ) ولكن موسى عليه السلام ألقى عصاه فأصبحت ثعبانا مخيفا تلقف كذبهم قال تعالى في تبيان ذلك (قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ

كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ)(الأعراف:١٠٦-١٠٨).

إن المستشارين لفرعون قد يكونون أشد من فرعون في التمسك بباطلهم فيسولون له صحة رأيه وبطلان دعوة موسى عليه السلام وهم أشبه ببعض بالإعلاميين حيث يضخمون الأشياء من أجل اقناع من يستمع أو يشاهد ما يعرضون قال تعالى (قَالَ الْمَلا مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ)(الأعراف:١٠٩) أي أن موسى عليه السلام هو ساحر محترف ولهذا عليك الا تتنازل عن مقامك السامي وجاهك العريض لدعوته وبإمكانك إبطال دعوته بمرأى ومسمع من الجماهير ، وعليك استدعاء السحرة لإبطال سحره وقد انصاع فرعون لهم فجلب السحرة واشترطوا عليه الاجر الكبير فأعطاهم ذلك ووعدهم بمزيد قال تعالى (وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ)(الأعراف:١١٢-١١٣) والآية توضح ما جاء في سورة النازعات ، وفيها بيان وايضاح ولذلك قال السيد الطباطبائي يرحمه الله إن القرآن الكريم يفسر بعضُه بعضَه الآخر أي يشرح ما جاء فيه من معاني .

وقد جاء السحرة بسحر عظيم أثّروا به على الناس قال تعالى (فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ) أي جعلوهم في حالة من الخوف و الرهبة ثم جاء الحق من عند الله تعالى قال تعالى (وَأَوْحَيْنَا إلى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ)(الأعراف:١١٧) فأكلت الثعابين الكبيرة واتضح الحق لمن كان يطلبه قال تعالى(فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)(الأعراف:١١٨) وانهزم السحرة مغلوبين بهذا الإعجاز الإلهي المبين قال تعالى(فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا

صَاغِرِينَ)(الأعراف:١١٩) ثم اذعنوا للحق وعلموا أن ما جاء به موسى عليه السلام ليس من السحر بل يجسد القدرة اللامتناهية للحق تعالى .

عظة وعبرة

إن من أعظم ما يُستخدم في الحروب في عصرنا هي الحرب الإعلامية للتأثير بها على الناس وتفكيك القاعدة الجماهيرية للخصم وقد كان ذلك هو ما يمارسه فرعون ومستشاريه اذ يظهرون أنفسهم أصحاب حق ويسمون جبهة موسى مع بني إسرائيل بجبهة الضلال التي تريد أن تحقق مصالح آنية على حساب الأكثرية من المجتمع القبطي .

وقد مارس فرعون وأتباعه كل الوسائل في التأثير على الناس ومنها تضخيم الأمور بشكل كبير كما تحدثت الآيات القرآنية عن ذلك عبر وسائل متعددة منها :

١) الإتيان بالمحترفين ،

٢) التأثير على شريحة كبيرة من الناس من خلال جعلهم يرون القدرات الخلاقة لفرعون وأتباعه ولكن الله تعالى أبطل ذلك رغم أن فرعون حقق كل ما أشير به عليه فوضع خطةً ناجحة للقضاء على دعوة موسى ع.

قوله تعالى (فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى)

إنها غطرسة وتجبر واستعلاء بادعاء الربوبية بل ادعاء أنه رب الأرباب رغم أنه عليم بوقوعه في تناقض صارخ فهو من ناحية يدعي أنه رب الارباب ومن

ناحية أخرى يعبد آلهة مزيفة قال تعالى (أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ)(الأعراف:١٢٧) .

إن فرعون بادئ ذي بدء لم يدّع الربوبية ولكنه عندما وجد قومه يطيعونه في كل ما يقول استخفهم ورأى أن ادعاءه مقبول قال تعالى (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) وعندما أظهر موسى عليه السلام المعجزات الدالة على صدق دعوته أظهر فرعون غطرسته استعلاءً وادعى أنه الإله الأوحد قال تعالى (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَا مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)(القصص:٣٨) أي عليكم أن لا تلتفتوا إلى سائر الآلهة وأن تنظروا إلى ربوبيتي العليا . غير أن الله تعالى بالمرصاد للطاغين فيمهل ولا يهمل ويعطي فرصة للإنسان ليتيح له أن يرجع إلى رشده وقد رُوي أنه أُمهِل بعد دعاء موسى عليه السلام عليه أربعين سنة ، وقد أظهر الله تعالى لفرعون قدرته عندما انشق البحر لبني إسرائيل وجاء بجيشه فقال أصحاب موسى إنا لمدركون لخوفهم من قدراته الكبيرة وعندما رأى فرعون أن البحر انشق لموسى عليه السلام ومر مع قومه تمادى في غيّه وطغيانه وعبر البحر بجيشه فأطبق عليهم البحر فلم يستطع الهرب من قدرة الله تعالى وتبين بطلان قوله بأنه الرب الأعلى ، فاستسلم ، و قال (آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ) .

إن مظهر انشقاق البحر إعجاز إلهي لتأييد موسى عليه السلام وقد جرى مثل ذلك للأنبياء والرسل فإبراهيم عليه السلام عندما ادعى النمرود أنه يحيي ويميت قال إبراهيم عليه السلام (فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ) فأبطل تدليس النمرود حيث كان يبقي بعض الناس حياً ويقتل بعضهم ويوهم اتباعه بأنه يحيي ويميت .

وهذه البراهين المحكمة والمعاجز الكبيرة تزيل الغشـــاوة والرين عن القلب فيدرك بفطرته الحق تعالى وقد يلتفت الإنســـان إلى الله عند الشـــدة ، روي أنه سـُئل مولانا الصـــادق عليه السلام عن الله فقال عليه السلام للســـائل (يا عبد الله هل ركبت سفينة قط قال: بلى ، قال: فهل كسر بك حيث لا سفينة تنجيك ، ولا سباحة تغنيك؟ قال: بلى ، قال: فهل تعلق قلبك هناك أن شـيئاً من الأشـياء قادر على أن يخلصـك من ورطتك؟ قال: بلى ، قال الصـادق عليه السلام : فذلك الشـيء هو الله القادر على الإنجاء حين لا منجي ، وعلى الإغاثة حين لا مغيث) [1] وهو معنى قوله تعالى (أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ) النمل ٦٢

قوله تعالى (فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى)

النكال هو العجز والضـــعف ويطلق أيضـــاً على من يتخلف عن دفع ما اســـتحق عليه فيقال نكل أي لم يســـتطع أن يدفع ما طُلب منه وفي الأصـــل هو القيد الكبير من الحديد يقال عنه نكل ويأتي أيضاً ويراد به التعذيب فيقال نكّل به بمعنى عذبه عذاباً شـــديداً وفيه عبرة لغيره كي يخاف ويرتدع ولعله هو الأقرب لمعنى اللفظ في الآية .

وقوله تعالى (الآخِرَةِ وَالأُولَى) فيهما أقوال متعددة:

منها أن نكال الآخرة هو العذاب الإلهي الذي ســـيؤاخذ به فرعون في عالم القيامة وما بعده من وقوعه في الدركات الســـفلى من جهنم ، وأما الأولى فهو إغراق فرعون وإنجاء جسده ليكون عبرة لمن يأتي بعده.

و منها أن نكال الأولى الذنوب التي صـدرت منه ونكال الاخرة الذنوب التي أدت به إلى ملاحقة وإرهاب بني إسرائيل.

[1] بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٦٤ - الصفحة ١٣٧

ومنها أن المراد بنكال الآخرة هو قوله (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) و الأولى قوله (مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي) .

إن قصة فرعون وبالرغم من أنها مضت ولم نرَ أحداً من الجبابرة يدعي الربوبية ، نعم يمارسون الطغيان عملاً ولكنهم لا يدعون الربوبية كفرعون ولعل ذلك بما حصل لفرعون وغيره ممن ادعى الربوبية . وفي قوله تعالى (نَكَالَ الآخِرَةِ وَ الأُولَى) قدمت الآخرة على الأولى لكونها الأعظم في عذابها فلا يقاس عذاب الدنيا بعذاب الآخرة .

قوله تعالى (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى)

يخاف الإنسان بطبيعته من العذاب ، وقد فطر الله تعالى الناس على الخوف من العذاب والأوبئة والأمراض ومن أي شيء يقع من العذاب الدنيوي ، لكن جميع ما يصدر من عذاب بإمكان الإنسان أن يتوقى منه ويخلص نفسه عنه وذلك بأخذ العبرة والعظة ممن سبقه واجتناب ما قاموا به من أفعال أودت بهم إلى الهاوية ولهذا ذكّرنا الله تعالى بذلك (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً) أي أن النكال الدنيوي والعذاب الأخروي يدعوان الإنسان إلى العبرة لئلا يقع في ما وقع فيه فرعون .

ضعف الانسان

إن قدرة الإنسان محدودة وضعفه بيّن ، رغم العطايا والمنح الإلهية التي أعطي إياها ولا يختص ذلك بالإنسان كفرد بل يعم النوع بما لديه من تشكيلات توجب قوة قدرته ولهذا نرى أن الزلازل والبراكين تدمر مدينة بأكملها وقد تزيلها عن الخارطة كما حصل في تسونامي إندونيسيا (٢٦

ديســـــــمبر ٢٠٠٤م) والزلزال الذي حدث في اليابان (١١ مارس ٢٠١١م) دون أن تستطيع دولة أو دول أن تدفع ما يترتب على ذلك وكل ذلك قليل من قدرة الله تعالى وحري بالعاقل أن يخشى معتبراً.

الاستدلال على المعاد

قوله تعالى (أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا)

هناك أســاليب متعددة للاســتدلال على المعاد فبعد أن يؤكد القرآن على أنّه واقع لا محالة يســتدل عليه ببرهان الأولوية وحقيقته هي أن الله تعالى إذا أبدع خلقاً لا من شــيء ســيكون إعادته أســهل من إيجاده أولاً ولهذا يخبر الحق تعالى عن أن الإيجاد إبداع ودليل على أن تحقق المعاد بنحو أيســر، وقد جاء هذا الاستدلال في مواضع متعددة منها قوله تعالى (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَــأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ)(يس:٧٨-٨٨) وقوله تعالى (يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَــأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ) تبيان للشــيء الأعظم، فالعظام وإن أصــبحت رميما لكنها موجودة وإمكانية الإعادة لها أســهل و أيســر بالنســبة إلى فهمنا، أما بالنسبة لله تعالى فليس هناك شيء أيسر وأسهل عليه من شيء آخر لأنّ جميع الأشياء الممكنة بالنسبة للقدرة الإلهية متساوية، لكن تفكيرنا يلحظ وجود تفاوت بين الأشياء ولهذا جاء إيضاح تساوي الأشياء بالنسبة لله تعالى في قوله تعالى (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَــأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ)(يس:٧٩) وقوله (وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) تبيان بإحاطة علمه تعالى بالأشــياء وعلمه هو قدرته وهو ذاته التي تتســاوى إليها الأشــياء . إذن الله تعالى أبدع نظاماً دقيقاً متقناً وهو أعظم من إعادته بحســـــب فهمنا ذلك أن النظام في غاية من الدقة والإتقان،

فنظام المجرات كلٌ في فلك يسبحون لو اختلفت مجرة عن أخرى بمقدار بسيط جداً لحصل اصطدام بين مجرتين وبين كوكبين وبالتالي لتلاشى النظام السماوي ولحدثت انفجارات هائلة زال الكون بها ، فهناك دقة متناهية دالة على عظمة الخالق وعلى إتقانه وإبداع صنعه ، وإذا كان الأمر بهذه الدقة العظمى والإتقان الفريد لا ينبغي للإنسان أن يتساءل عن رده وإرجاعه كرة أخرى لأن الله تعالى بيده الأمر وهو القادر على ذلك قال تعالى (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)(يس:٨٢) إن ما يتعجب منه الإنسان في مسألة إرجاعه لهو أقل بكثير من وجود الكواكب والمجرات ذات الدقة العالية والتي هي أكبر بملايين المرات من الوجود المادي الذي نعيشه ، وعليه فان المعاد هو أسهل وأيسر تحققاً ولعل نظرة عابرة على الكتب التي تتحدث عن الأجرام السماوية وعن الدقة والإتقان لها وعن بعد كل كوكب عن الكوكب الآخر يعطي الإنسان البصيرة والفهم .

والاستدلال المتقدم على نسق تفكيرنا ، أما بالنسبة لقدرة الله تعالى فالكون بما فيه وبشراشره على حد التعبير الفلسفي ، و بجزئياته بحسب التعبير العلمي أسهل مما نتصوره بالنسبة إلى قدرة الله تعالى لأنّ جميع الأشياء لا شيئية لها إلاّ بالقدرة ، وهي في جودها مرتبطة بالله تعالى فلا وجود لها إلاّ بقدرة الله تعالى ، وقد أطلق الفلاسفة على الوجود بأكمله الوجود التعلقي ، حيث أن الله تعالى لو لم يمدّه بوجوده لعاد إلى كتم العدم . والوجود الممكن بالرغم من ضئالته إلا أن العلماء في مختلف دول العالم لم يدركوا أبعاده ولا عدد مجراته فضلاً عن الإحاطة بأسراره .

قوله تعالى (أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا)

السماء في اللغة هو الارتفاع الذي يشكّل ظلاً على غيره ولكن المعنى ههنا يراد به الوجود للكواكب والمجرات الأخرى قال تعالى (رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا) (النازعات:٢٨) . أي أن الله تعالى جعل لكل كوكب سمكاً -سقفاً خاص به- فالجاذبية لها حد بالنسبة للكرة الأرضية وهو سقفها وكل سماء أخرى لها سقف محفوظ يحفظ ذلك الكوكب في وجوده عن الاقتراب المضر للكواكب الأخرى والتعبير بقوله (رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا) أي جعلها مستوية ذات نظام كروي يختلف به كل كوكب عن الكواكب الأخرى .

وهنا نرجع التساؤل أليس هذا الذي جعل الاتقان والدقة في هذا الخلق قادر على إعادته وذلك أيسر وأسهل من إيجاده أول مرة؟!.

قوله تعالى (رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا)

قال بعض المفسرين إن الارتفاع له نظرتان:

الأولى أن تنظر إلى الارتفاع من فوق إلى تحت ونسميه عمقاً.

الثانية أن تنظر إلى الارتفاع من تحت إلى فوق عكس النظرة الأولى فهو سمك.

فسمك الشيء هو النظر إليه من تحت إلى فوق وهو أيضاً يقابل العمق ، فيكون معنى قوله تعالى(رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا) أي أوجد التوازن لها من تحت إلى فوق ، وإذا نظرنا سمك الكرة الأرضية سنجد أن الغلاف الجوي الذي يحيط بها بحيث إذا خرج أحد من الجاذبية إلى الفضاء فلن يستطيع أن يحفظ لنفسه التوازن إلا بأجهزة تتلاءم مع انعدام الجاذبية . وتأتي التسوية أيضاً بمعنى التنظيم ، أي جعلها منتظمة.

قال بعض المفسرين وهذا المعنى إشارة إلى دقة التنظيم الحاكمة على الأجرام السماوية ، وإحاطة الكرة الأرضية كالسقف المحكم البناء الذي يحفظها من شدة آثار الأحجار السماوية والأشعة الكونية المميتة والمتساقطة عليها باستمرار.

وقيل إن معنى (فَسَوَّاهَا) أي أحكم تسويتها بنظامها الكروي . والنظام الكروي جعله تعالى متناسبًا مع الكواكب السماوية ومع الأرض ، ويراد بالتسوية هنا هو تساوي الفاصلة بين أجزاء هذا السقف بالنسبة إلى المركز ولا يتحقق ذلك من دون كروية الأرض وما حولها من الأجرام السماوية.

وقد ورد الاستدلال على هذه المعاني في القرآن الكريم بأكثر من آية وأنه ينبغي للإنسان إذا أراد أن يفهم حقيقة المعاد أن ينظر إلى الوجودات العظمى التي أبدعتها القدرة الالهية قال تعالى(لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)(غافر:٥٧).

قوله تعالى (وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا)

من الأمور الملفتة لانتباه الإنسان ظاهرتان عجيبتان مترتبان على الكواكب السماوية وهي سابحة قال تعالى (وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) فيترتب عليها ظواهر منها ما يترتب لدينا في الكرة الأرضية من ظاهرتي الليل والنهار وما يترتب أيضاً على هاتين الظاهرتين من أمور دقيقة نستعرض بعضاً منها .

فالنهار تدب فيه الحركة والنشاط والحيوية والعمل ، والشمس بفوائدها الكثيرة التي يصعب على الإنسان أن يحصي تلكم الأمور المترتبة عليها . إذن النهار جد هام لنا لكونه معاشاً للإنسان وقد يقال إن بعضهم يشتغل ليلاً إلا أن

ذلك على خلاف الطبيعة ويسبب أزمات كثيرة له قال الله تعالى (وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا) فوجود النهار يرتبط بكثير من الأشياء الدقيقة منها صحة الإنسان وعليه أن يعمل نهاراً وأن يستريح ليلاً لينسجم مع حركة الكون .

أما الليل فيتاح للحيوانات الاستقرار والهدوء فالطيور في أوكارها والوحوش في فلواتها ، والكثير يخلد إلى الدعة والاستقرار والراحة في الظلام وهدوء الليل.

وهناك مشارق ومغارب متعددة فعندنا نقول يلف الكون بمعني أنه يلف المنطقة التي يكون فيها ليلاً . وهناك أبحاث دقيقة تفسر لنا كيفية حدوث النهار ، وتحقق الليل وما يترتب على الظاهرتين من ناحية علمية دقيقة ونحن لا نستعرض ذلك ولكننا نشير إليه لأهميته وانعكاساته الكبيرة على وجود الكائنات.

أي أن الانعكاسات التي تحدث ليست خاصة بالإنسان بل أن النظام يرتبط بهاتين الظاهرتين وهما ترتبطان بالأجرام السماوية ، وهذه الحركة التي تحدث الليل والنهار أفصح عنها الذكر بقوله تعالى(وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا) فالغطش بمعنى الظلام والضحى يشير إلى وجود النهار ، قال علماء اللغة إنّ الغطش يشبه العمش ، تقول أعمش لأنه يرى نصف رؤية أو أن نظره ضعيف ، والضحى هو انبساط الشمس في امتداد النهار ، والله تعالى جعل للظاهرتين دوراً هاماً في حياة الإنسان والحيوان والنبات ولذا قيل إنّ وجودها لا يستقيم دون هاتين الظاهرتين ، فلو استمر الوقت ليلاً لما تمكن الإنسان من الإبداع ، ولو استمر نهاراً لعيي وأصبح يعيش الضنك والتعب فهناك ارتباط وثيق بين عمل الإنسان ورزقه وصحته وظاهرتي الليل والنهار .

قوله تعالى (وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا)

أي بســـطها ، قيل إنّ الله تعالى قبل دحو الأرض غطاها بالمياه وليس هناك يابســـة فقد جعل الماء ينهمر من الســـماء عليها مدة طويلة ، ثم جعله ينفذ في أعماق بعضـها ، فأصـبح بعض أجزائها مغطى بالماء وبعضـها يابسـة لأنه نفذ في أعماقها ، ويســـمى ذلك دحواً أي بســـطًا ، ولذلك يطلق على الأرض بانها بسيطة.

وقيل إن هناك بســطاً وهناك دحواً وأن دحو الأرض كان من تحت الكعبة أي أن أول بقعة انحسر عنها الماء كان تحتها ثم وجد انبساطان آخران ، والكعبة هي المركز للأرض ، وبالدحو تشـــكلت لنا البحار والمحيطات وفيها كميات كبيرة من المياه ويقال إن البســيطة نســبتها إلى الأرض المغطاة هي ٢٤٪ بمعنى أنها أقل من الربع ، ولولا أن الله تعالى مكّن الإنســان وجعله يتأقلم ويتكيف مع واقع الأرض لأصـبحت المعيشـة عليها تمثل عسـرًا وحرجاً عليه . وبعد أن جعل الله تعالى قسماً من الأرض له صلاحية العيش عليه فجّر منها الماء المخزون فيها قال تعالى (وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا)(القمر:١٢) وجعل الإنســان يســتفيد منها وأطلق عليها مرعى ، إما من الرعي أو من الرعاية وكلاهما صــحيح قال تعالى (أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا) ويطلق المرعى على الراعي الذي يرعى الغنم كما يطلق على المرعيُّ وهو الأعشـــاب التي يســـتفيد منها الإنســـان والحيوانات الأخرى ، والراعي هو الذي يحيط تلك الحيوانات بالرعاية ويســـتفيد منها ومن مرعاها قال تعالى(مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ)(النازعات:٣٣) .

قوله تعالى (وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا)

جعل الله تعالى لكل شيء ميزانا وللميزان معنيان:

الأول المقياس للأشياء .

الثاني ما يحُدث التوازن والنظام والاستقرار.

وميزان الأرض الذي يحقق الاستقرار والتوازن لها هو الجبال فبها تكون الأرض راسية مستقرة ولولاها لكانت تميل بأهلها ولا تستقر بهم ، وبالتالي ستزول المنجزات التي يحققها أهلها عليها ، وقد أفصح الحق تعالى عن ذلك في بعض آي القران قال تعالى (وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا) أي جعلها ثابتة لتثبيت الأرض وروي هذا المعنى عن إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام قال (وَوَتَّدَ بِالصُّخُورِ مَيَدَانَ أَرْضِهِ)[1] . فالأوتاد هي المسامير أي أن الله تعالى سَمرَ الأرض بالصخور وجعلها راسية لا تميل بأهلها . ومن الواضح أنه لولا الجبال لم تثبت الأرض لأنها على كتلة من النيران وبمجرد حدوث بركان أو زلزال ستتقلب الأرض بأهلها فهي أشبه بالسفينة في أمواج البحر العاتية.

إن تلك الكتل الملتهبة من النيران المستقرة عليها الأرض هي طاقات هائلة أعظم من البترول وإذا تمكن الإنسان من الاستفادة منها ستصبح الطاقة رخيصة للكميات الهائلة من النار الملتهبة ، غير أن الإنسان ليس لديه القدرة للاستفادة منها في عصرنا الحاضر الا بنحو محدود .

والخلاصة

أن الجبال تحفظ التوازن والرسوخ والثبات للأرض فهي نعمة لأهل الأرض يمتن الله بها على الكائنات الموجودة فيها خصوصاً الإنسان وهي آية كونية

---

١ نهج البلاغة/خطبة يذكر فيها ابتداءَ خلق السماءِ والأرض ، وخلق آدم عليه الصلاة والسلام

كالليل والنهار وبالإضـــافة إلى ذلك فإن بعض الجبال تشـــتمل على مناظر خلابة هي أشـبه باللوحات الفنية ولهذا يتغنى الأدباء بقمم الجبال وبخضـرتها قال أحدهم :

وربُّ الناسِ يصـــــنعُ كلَّ لونٍ وأشـــــكالٍ يغَصُّ بها المجالُ
فتَشـمخُ في السـماءِ جبالُ أرضٍ يمســـدِّدُ وجهَها مطرٌ ســـِجالُ

مع احتوائها أيضا على فوائد للرياضيين بتسلقها والاستفادة منها بالبناء بأحجارها وتزيين البيوت والقصور والمحلات بصخورها المنحوتة واشتمالها أيضا على كنوز من الثروات والمعادن والأحجار الكريمة ، غير أن أهم هذه النعم هو حفظ التوازن.

قوله تعالى (وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ)

خلق الله تعالى الكون من أجل الإنســـان ليســـتمتع به وليصـــل من خلال اســـتثمار خيراته والنعم والإمكانيات المودعة فيه إلى كماله وقد أفصـــح القرآن الكريم عن ذلك بقوله تعالى (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا) وقد زوّد الإنســان بإمكانيات في جسـمه وروحه وعقله بمفردات كونية تصـب في صـالحه ليســـتفيد بتدرجه ورقيه في وصـــوله إلى الله تعالى ، وقد بينت هذه الحقيقة في الروايات بنحوين:

الأول أنه لا ينبغي للإنســـان الذي خلق الله تعالى له هذه الإمكانيات المادية الكبيرة أن يتعلق بها بل ينبغي له أن يتعلق بخالقها وبموجدها لأنها متاع مسـخر له وعليه أن يسـتفيد من أجل الوصـول إلى الله تعالى قال تعالى (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ

اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)(القصص:٧٧) وفي الروايات حض وتوكيد على الاستفادة من الإمكانيات المادية دون التعلق بها لئلا تكون قيوداً وأغلالاً تربط الإنسان وتشده إلى الأرض قال رسول الله ﷺ «ليس من حب الدنيا طلب ما يصلحك» وعن الامام علي عليه السلام « إنّ الله تعالى جعل الدنيا لما بعدها وابتلى فيها أهلها ليعلم أيّهم أحسن عملاً ولسنا للدنيا خلقنا ولا بالسعي لها أمرنا وإنّما وُضِعنا فيها لنبتلى بها ونعمل فيها لما بعدها» وعنه عليه السلام «الدنيا دارُ المنافِقين وليست بدارِ المتّقين ، فليكُن حظّك من الدنيا قِوامَ صُلْبِكَ وإمساكَ نَفْسِكَ ، والتزوّدَ لمَعادِكَ» . وقد ذم الله تعالى من تعلق بمتاع الحياة الدنيا وأخلد إليها معرضاً عنه تعالى قال تعالى (وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ) مع أن الأرض وما عليها وما فيها متاع قال تعالى (مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) ولعل في كلمة (وَلِأَنْعَامِكُمْ) إيضاح بأن الاستفادة من الأرض ومن نعمها كاستفادة الانعام ولا ينبغي للعاقل أن يقصر نفسه على ذلك لأنه سيكون كالأنعام قال تعالى (إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلا) وروي عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام (فما خُلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها ، أو المرسلة شغلها تقممها) أي أن من اقتصر على الاستفادة منها في الدنيا فقط فهو كالبهيمة ، مع أن هناك فارقاً جوهرياً بين الحيوان والإنسان .

الثاني عليه أن يسخر النعم لكماله ويشكر الله تعالى كلما ازدادت لديه قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) لأنها ابتلاء من الله تعالى ليرى أنه يستفيد منها في الطريق السليم الصحيح قال رسول الله ﷺ « ليس من حب الدنيا طلب ما يصلحك» وأن لا يسخرها من

أجل شـهواته قال تعالى (لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ)(النمل:٤٠) وقد حضّت الروايات على شكر الله تعالى وإلفات نظر الإنسان أن جميع النعم منه عز وجلّ قال تعالى (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ)(النحل:٥٣)

وخلاصة ما يريده الحق تعالى من عباده أنهم لن يصلوا إلى درجة الكمال إلاّ بمعرفة أن الدنيا وما بها من متاع هو من أجل الوصول إلى الله تعالى وقد عبر المصطفى ﷺ تعبيراً دقيقاً عن ذلك روي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله : مالي والدنيا؟ [وما أنا والدنيا؟] إنما مثلي ومثلها كمثل راكب رفعت له شجرة في يوم صائف فقال تحتها ثم راح وتركها) [1] وهو المعنى المراد من الآية (مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ)وأن النشأة الأخرى غير المادية أو التي تختلف عن النشأة الدنيوية ، تتطلب من الإنسان أن يكون مسؤولاً سائرًا على جادة الهدى والصواب وإن لم يكن كذلك فإن العاقبة وخيمة وبتعبير آخر أن الدنيا وما فيها خلقت وجعلت لغاية وحكمة وليست عبثاً واعتباطاً قال تعالى (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ) (المؤمنون:١١٥).

القيامة والتعبيرات المختلفة

قوله تعالى (فَإِذا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى)

لقد جاء التعبير عن القيامة في القرآن الكريم بألفاظ متعددة ، كالحاقة ، والواقعة ، والصاخة وهنا جاء التعبير بالطامة الكبرى . وكل تعبير يشير إلى معنى يتغاير مع المعنى الآخر ، فالحاقة تعبر عن الحق المطلق ، والواقعة تعبر عن لزوم الوقوع لا محالة ، وأما الطامة فهي مأخوذة من طم الشيء بمعنى تغطيته ، ويراد بذلك أنها تجسد الختم والنهاية فالغطاء نهاية المآل ، أي

١ بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٧٠ - الصفحة ٦٨

بمعنى انتهاء مظاهر عالم الوجود الدنيوي ، ولأنّ القيامة ستغطي على جميع مظاهر الكون الذي سنعيشه ، فيصبح الكون لا وجود له ويتلاشى منقضياً .

وقد ثبت في الحقائق العلمية أنّ الوجود المادي له أمد محدد ثم يتلاشى وعندما يعبر الحق تعالى عن القيامة بأنها الطامة فهو تعبير آخر عن نهاية الوجود المادي المرتبط بنشأة الحياة الدنيا ، وفي تعبيراتنا الشائعة نعبر عن الحوادث الكونية الكبيرة التي تغطي على غيرها بالطامة كحوادث الزلازل والبراكين لكنها طوام صغرى ، أما القيامة فهي الطامة الكبرى كما عبر القرآن الكريم .

ويراد في التعبير بالطامة إلفات نظر الإنسان بأن الأنظمة المتعددة والمظاهر المختلفة كرسو الجبال وحدوث الليل والنهار وإنزال الماء من السماء وإيداعه الأرض وبقية المظاهر الأخرى التي أوجدها الحق تعالى بقدرته ستنتهي وتتبدل القوانين الكونية بقانون كوني يتناسب مع الوجود الأخروي . وقد جاءت تعبيرات مختلفة عن تبدل بعض المظاهر الكونية كل على حده ككون الجبال كالعهن المنفوش ، وانطماس النجوم وتبدل الأرض غير الأرض وتغير الأشياء .

والغاية من كل هذه التعبيرات أن يتذكر الإنسان مصيره الأخروي ليسعى إلى الفلاح والنجاح ، وإن كان أكثر الناس لا يتذكر إلا عندما يصاب بمصائب تمت إليه بصلة وثيقة وهناك من لا يتذكر إلا بعد ارتحاله قال علي عليه السلام (الناس نيام وإذا ماتوا انتبهوا)[1] نعم إن من أعظم الأشياء التي تذكر الإنسان بالأخرة مظاهر القيامة لأنها ذات إيقاع سريع جداً ، فالجبال تندك ، والأرض تطوى ، والنجوم تنطمس ، وهناك مظاهر غريبة أخرى كلها تستدعي

١ نسبه العلامة المجلسي البحار (١٣٤/٥٠) إلى رسول الله (ص) ونسبه ابن ميثم البحراني الى علي (ع) في (شرح مائة كلمة).

التذكرة . أما غيرها كموت قريب فتوجب تذكرة مؤقتة ثم يعود الإنسان سيرته الأولى قال تعالى (يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإنسان مَا سَعَى) .

القيامة وأصحاب الأعمال الصالحة

هناك حصانة لأصحاب العمل الصالح ذكرت في الروايات فقد ورد أن المؤمن يستظل بظل صدقته وكذلك هناك من يستفيد من صلاته ومن يستفيد من بره لوالديه . وقوله تعالى(فَإِذا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإنسان مَا سَعَى) أي أن جميع ما سعى يلتفت إليه .

إن الإنسان قد يلتفت إلى بعض الأشياء في الحياة الدنيا وهي الأمور التي تشكل له أهمية فائقة فالمريض الذي يمتلك ثقافة سيتذكر التأثيرات لمرضه على صحته وهكذا غيره كالتاجر الذي تبور بعض السلع ويخسر فيها سيتذكر تأثير ذلك على وضعه ولكنه تذكر محدود يرتبط بأمر خاص بخلاف التذكر لجميع ما صدر من الإنسان في حياته كلها عندما تبدأ مظاهر القيامة.

من يستفيد من التذكرة

قوله تعالى (وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى فَأَمَّا مَن طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى)

هناك أمران أساسيان لابد من معرفتهما:

الأول عدم الجدوى والفائدة من التذكرة في ساعة العسرة ، فلن يستفيد الإنسان عند ذلك ولقد ذكر القرآن أنموذجاً لمن لم يستفد من التذكرة عند ساعة العسرة هو فرعون عندما آمن بالذي آمنت به بنو إسرائيل ، وقال إنه من المسلمين ، لكن ذلك لم ينفعه لأنه لن يستطيع أن يتلافى ما صدر منه وكثير

من الناس عنده حالة فرعونية فعندما لا يجد لنفسه فرصة يتوب إلى الله تعالى ، إن هذه التوبة غير مقبولة من المجرمين ، نعم قد تقبل من البسطاء الذين لم تصدر منهم أعمال موبقة ، أما المجرمين والطغاة ، فإن لهم حساباً خاصاً بهم وقد كرر القرآن الكريم ما يتعلق بعذاب المجرمين والطغاة وأكد على أنهم أصحاب النار .

الثاني إن الإنسان يعرف عمله السيء وعمله الصالح من خلال ضميره فقد أودع الله تبارك وتعالى في ضمير الإنسان القدرة على تمييز العمل الصالح من الطالح كالأنس بالعمل الصالح والتأثر السلبي بالطالح . وقد جعل للإنسان علامات ودلائل يتعرف بها على ما يصدر منه من أعمال وما يريد أن يقوم به من أفعال روي عن النبي ﷺ أن الإثم يحوك في النفس ويحب الإنسان أن يخفيه عن غيره قال ﷺ (البر ما سكنت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب ، والإثم ما لم تسكن إليه النفس ، ولم يطمئن إليه القلب ، وإن أفتاك المفتون) [1] وروي عنه ﷺ (يا وابصة ، استفت قلبك ، استفت نفسك ، البر ما اطمأن إليه القلب واطمأنت إليه النفس ، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك) [2] فإذا رأيت ضميرك يؤنبك فاعرف وجود خلل بسبب عدم الراحة وعدم الاطمئنان وعليه فإنّ العمل الذي صدر منك أو سيصدر غير صحيح ، وعليك أن تستفتي ضميرك فهو الميزان لمعرفة الصواب من الخطأ ، فمن صلى مرائياً سيقول عندما تنتهي صلاته ما الفائدة المترتبة على ذلك ؟! .

---

١ كنز العمال :٧٢٧٤

٢ المصدر نفسه

قوله تعالى (وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى)

أي أن الجميع سيشاهد جهنم ، فبرزت أي جعلت بمرأى للناس وعندئذٍ فالكل يخاف حتى الصالحين ، لكنهم في مأمن . فهناك روايات مفادها أن الإنسان إذا كان من الصالحين لا تخرج روحه من جسده إلاّ ويريه الله تعالى رتبته ومكانته في الجنة والروايات صحيحة ومعتبرة وعندئذٍ تطيب نفسه بخروج روحه ، بل هناك حديث أنه عندما يأتي ملك الموت يكون لديه توق وشوق للقاء الله تعالى ، فمن أحب لقاء الله أحب الله لقائه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقائه وهو إشارة إلى وقوعه في العذاب .

والخلاصة

إن المؤمن يتوق إلى الموت لما يرى من النعيم ، والسيء يرى مكانته السيئة وعاقبته الوبيلة فيبغض الله تعالى ويبغض ملك الموت وتسود الدنيا بين ناظريه ويعيش الاكتئاب والقلق حالة خروج روحه ، وهذه الحالة لا توصف من شدتها . هذا في الدنيا وأما ما يتعلق بأهوال يوم القيامة وعالم الاخرة فهو أعظم وأعظم لأنه يمثل شدة العذاب الإلهي حتى يحاول الإنسان عند موته أن يرجع قال تعالى (رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ)(المؤمنون:٩٩-١٠٠) فيأتيه النداء (كَلا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)(المؤمنون:١٠٠) وبعضهم أشد و أسوأ حالا من بعضهم الآخر قال تعالى (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا)(الفرقان:٢٧) وهو تعبير يمثل أقصى درجات الندم ، فكأنه يقطع أصابع يديه.

الوجود الحقيقي لجهنم

إنّ الجحيم موجودة ولكن الله تعالى حجبها عنا وحجبنا عنها وليست تخلق في عالم الاخرة ولهذا جاء التعبير عنها (وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى) أي أظهرت بعد تغطيتها وحينئذ سيتأثر المجرمون لأن العذاب الإلهي سيحيط بهم من كل جانب فيصبحون في حالة من الخوف والهلع.

إن ما نراه من الخوف من النار المشتعلة لا يمثل شيئاً بالنسبة لنار الاخرة لأنها تجسد غضب الله تعالى . وقد قيل إن بعض الناس لا يرى جهنم لأنّه يحشر أعمى كما عبّر القرآن فكيف نجمع بين الآيتين؟ والجواب أن مواقف القيامة متعددة وكل موقف منها يختلف عن الموقف الاخر ففي بعضها يكون المجرم أعمى وفي بعضها الآخر يرى العذاب فلا تنافي بين الآيات ، ولعل قوله تعالى (وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى) يفصح عن بداية التشديد في العذاب بمعنى أن من كان أعمى فهو في بعض المواقف التي يكون فيها العمى جزء من عذابه.

وقد أشارت الروايات أنّ الإنسان تمر عليه أهوال وشدائد متعددة ، وكلما خلص من عقبة رأى عقبة أخرى قال أمير المؤمنين عليه السلام : « كلّ شيءٍ من الدنيا سماعه أعظم من عيانه ، وكلّ شيء من الآخرة عيانه أعظم من سماعه ، فيكفيكم من العيان السماع ، ومن الغيب الخبر » [1] وقال عليه السلام : « واعلموا أن مجازكم على الصراط ، ومزالق دَحْضِهِ ، و أهاويل زلله ، وتارات أهواله » [2] وعنه عليه السلام : « إن أمامكم عقبة كؤوداً ومنازل مهولة ، لا بدّ لكم من الممر بها ، والوقوف عليها ، فإمّا برحمةٍ من الله نجوتم ، وإمّا بهلكةٍ ليس بعدها انجبار » [3]

---

١ نهج البلاغة / صبحي الصالح : ١٧٠/ الخطبة (١١٤)

٢ نهج البلاغة / صبحي الصالح : ١١١ . الخطبة (٨٣)

٣ صحيح الاعتقاد / المفيد : ١١٢ . ١١٣

وعنه عليه السلام : « أن جهنّم لها سبعة أبواب أطباق بعضها فوق بعض .. . فأسفلها جهنّم ، وفوقها لظى ، وفوقها الحطمة ، وفوقها سقر ، وفوقها الجحيم ، وفوقها السعير ، وفوقها الهاوية » [1] وعنه عليه السلام يصف عذابها : « أما أهل المعصية فأنزلهم شرّ دار ، وغلّ الأيدي إلى الأعناق ، وقرن النواصي بالأقدام ، وألبسهم سرابيل القطران ، ومقطّعات النيران ، في عذابٍ قد اشتدّ حرّه ، وبابٍ قد أُطبق على أهله ، في نارٍ لها كَلَبٌ ولَجَبٌ ، ولهبٌ ساطع ، وقصيف هائل ، لا يظعن مقيمها ، ولا يُفادى أسيرها ، ولا تُفصَم كبولها ، لا مُدّة للدار فتفنى ، ولا أجل للقوم فيُقضى » [2].

وجاء في الدعاء (وَلَوْ لَمْ يَكُنْ اِلاَّ الْمَوْتِ لَكَفى كَيْفَ وَمَا بَعْدَ الْمَوْتِ أَعْظَمُ وَأَدْهى) [3] إذا كل شدة بعدها شدة أعظم منها لمن كفر بالله وعصاه وخرج عن سراطه المستقيم .

قوله تعالى (فَأَمَّا مَن طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى)

يتحدث الحق تعالى عما يردي الإنسان إلى الهاوية ويؤدي به إلى التسافل ، وأن أعظم شيء هو الطغيان ، فمن طغى سيؤثر الحياة الدنيا بمعنى أنه سيجدُّ كادحاً ويسعى جاداً للحصول على لذاتها ولن يرعوي لأي شيء يقف أمامه وفي طريقه لمنعه عن تحصيل اللذات وسينسى أخراه حتى تكون الجحيم مأواه ولهذا قال تعالى (فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى) . وقد أفصحت الروايات بأن أساس شقاء

١ مجمع البيان / الطبرسي ٦ : ٥١٩.

٢ نهج البلاغة / صبحي الصالح : ١٦٢ ـ الخطبة (١٠٩)

٣ بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٨٤ - الصفحة ٢٨٨

الإنسان يترتب على استكباره وطغيانه فعن رسول الله ﷺ (من يستكبر يضعه الله) [1]

وعنه ﷺ (ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر) [2] " والجواظ هو المختال في مشيته " وهو السبب الذي أدى بإبليس إلى الشقاء لأنه رأى أنه أعلى مكانة من آدم عليه السلام قال تعالى (قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ)(الأعراف:١٢) أي لدي ميّزة هي كون وجودي شفافاً ، أما وجود آدم عليه السلام فهو كثيف وبالتالي فأنا أعلى منه رتبة فلم يسجد له بل تكبر وطغى .

التمحور حول الأنا

الاستكبار والاستعلاء والتجبر والطغيان مفاهيم تشير إلى حقيقة هي أن الإنسان لا يلتفت إلا إلى نفسه ويتمحور في واقعه حول ذاته وبدلا من أن يطوف حول الله تعالى وأن يخضع له تعالى يستعلي عن طاعته بل ويرى أنّه أحق بالطاعة من الله تعالى ولهذا المعنى شواهد من إبليس وغيره لا تنقطع ، ولا يختص هذا المعنى من الطغيان والاستكبار بمن كان من المتمردين على الله تعالى ، فقد يكون طاغٍ وظاهر حاله من المؤمنين لأنه يتمرد على الله بعض الأحايين ، أي يرى أنه لا يجب عليه أن يخضع لله تعالى فيطيع هواه ويبتعد عن أوامر الله تعالى . ولعل من الأمثلة على ذلك بعض من يكثر العبادة ويقوم ببعض الأعمال الصالحة ولكنه لا يعرف المحتوى والمضمون حتى أنّ بعضهم ظن أنه أفضل من النبي ﷺ فقد كان رجل على عهد رسول الله ﷺ يغزو مع رسول الله ﷺ ، فإذا رجع وحط عن راحلته ، عمد إلى مسجد الرسول ﷺ ، فجعل

١ أمالي الصدوق: ٣٩٥ / ١

٢ الترغيب والترهيب: ٣ / ٥٦٣ / ١٦

يصلي فيه فيطيل الصلاة ، حتى جعل بعض أصحاب النبي ﷺ يرون أن له فضلاً عليهم . فمر يوماً ورسول الله ﷺ قاعد في أصحابه . فقال له بعض أصحابه: يا نبي الله ، هذا ذاك الرجل - فإما أرسل إليه نبي الله ﷺ ، وإما جاء من قبل نفسه - فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال : والذي نفسي بيده إن بين عينيه سفعة من الشيطان . فلما وقف على المجلس قال له رسول الله ﷺ : أقلت في نفسك حين وقفت على المجلس: ليس في القوم خير مني؟ . قال: نعم!) [1] .

إذن الطغيان لا يختص بمن أنكر الله تعالى كما يتصور بعض بل يشمل بعض المؤمنين الذين لم يصلوا إلى درجات عالية في إيمانهم فيتكبرون على بعض أوامر الله تعالى . فالتكبر درجات أعلاها إنكار الحق تعالى الكفر به وهناك درجات أدنى من ذلك ممقوتة كالتكبر على بعض أحكامه أو التكبر على العباد . إنّ كل أنماط وأنواع الطغيان تؤدي بالإنسان إلى الوبال والهلاك وتجرّه إلى إنكار الحق تعالى كما مرّ في قضية فرعون حيث انتهى به المطاف إلى قوله أنا ربكم الأعلى .

إن استشعار الإنسان بالغنى عن الحق تعالى يجره إلى التكبر قال تعالى (كَلا إِنَّ الإنسان لَيَطْغَى أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى) .

وللغنى عن الله أسباب :

منها المال فقد روي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن رجلاً فقيراً أتى رسول الله ﷺ وعنده رجل غني فكف ثيابه وتباعد عنه فقال له رسول الله ﷺ : ما حملك على ما صنعت أخشيت أن يلصق فقره بك ، أو يلصق غناك به؟ فقال يا رسول الله أما إذا قلت هذا فله نصف مالي قال رسول الله ﷺ للفقير: أتقبل

١ مسند أبي يعلى: ٤ / ١٥٤ / ٤١١٣ وراجع المناقب لابن شهر آشوب: ٣ / ١٨٧

منه؟ قال: لا قال ﷺ: ولم ؟ قال: أخاف أن يدخلني ما دخله)[1] ويبدو من الحديث أن الغني معدنه طيب ولكن الغرور والكبرياء أخذا منه مأخذاً كبيراً ولذا استدرك باقتراح إعطاء الفقير نصف ماله غير أن الفقير كان أعظم إيماناً فقال للنبي ﷺ (أخاف أن يدخلني ما دخله).

ومنها الجاه فقد يكون بعض الناس أميراً أو ملكاً أو وزيراً فيرى الناس تأتمر بأوامره فيأخذه الغرور والكبرياء ولهذا ينبغي لمن كان كذلك أن يلتفت إلى عظمة الله تعالى لئلا يتأثر ببعض المظاهر فيهلك روي عن الصادق عليه السلام (إياكم وهؤلاء الرؤساء الذين يترأسون ، فوالله ما خفقت النعال خلف رجل إلا هلك وأهلك) ومعنى ذلك أن من يسير وراءك ويأتمر بأوامرك دون قيود أو ضوابط سيؤدي بك ذلك إلى الكبرياء في نفسك ويجرك إلى الاستعلاء عليه وعلى غيره ولهذا عبّر بخفق النعال ، وهو كناية عن كثرة الناس الذين يأتمرون بالأوامر دون ضوابط وحدود ، ولهذا يتحاشى بعض العلماء من الحواريين ويخاف على نفسه أن يظن أنها صاحبة مكانة عالية فلا يقبل أن يمشي معه أحد لئلا يصاب بشيء من الطغيان .

ومنها طغيان العلم وهو أشد من طغيان الجاه والمال فإذا رأى نفسه يفقه المسائل بشكل دقيق ورأى بعض أقرانه يستفيد منه تصوّر في نفسه أنه لا نظير له وظن أن غيره من أقرانه ينبغي أن يكونوا خدماً وحشماً له فيحتجب بعلمه عن النظر إلى عظمة الحق تعالى وذلك أعظم حجاب ، و قد ذكرنا في بعض الأبحاث التفسيرية أنّ الحجب على قسمين حجب ظلمة وحجب نور كما جاء ذلك في المناجاة الشعبانية ، وحجب النور تمنع الإنسان بنحو أكبر من حجب

---

١ عدة الداعي - ابن فهد الحلي - الصفحة ١٠٤

الظلمة حيث يدور في فلكها مبتعداً عن الله تعالى ويرى نفسه الأحق بالطاعة والإتباع من الله تعالى.

الذنوب هي حجب ظلمانية

إن الذنوب تشكل ظلمة وإذا التفت إليها الإنسان واستغفر مقراً بخطئه سهل عليه التخلص من أوضارها لكن حجب النور كالعلم يصعب على الإنسان أن يخترقه لأنه يرى آثاره الحسنة ولهذا يتسافل في دركاته دون أن يشعر بذلك فتنخفض درجته إلى أدنى من الحيوان قال تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا)(الجمعة:٥) وفي تعبير آخر عبر عنه بالكلب قال تعالى (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أو تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ)(الأعراف:١٧٦) وقد جاء هذا المثل في بعلم بن باعوراء الذي أعطاه الله تعالى الاسم الأعظم ولكنه أراد أن يحارب الله بنعمه فطغى وتكبر فأصبح من المبعدين.

إن طغيان إبليس علمي بمعنى أنه من حجب النور فقد اغتر بعبادته لأنه كما روي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: (إن إبليس عبد الله في السماء سبعة آلاف سنة في ركعتين فأعطاه الله ما أعطاه ثواباً له بعبادته) ولذا قال الله تعالى (فَأَمَّا مَنْ طَغَى) أي خرج عن حده وآثر الدار الفانية وأصبح مغروراً بها ، وما أكثر ما يفعل الناس ذلك .

تتمة

الطغيان هو التعدي عن الحد وينشأ من الغرور والكبرياء وهما ينشآن من الجهل ، فمن كانت لديه معرفة عملية وليست نظرية فمحال أن يطغى غير أنّ

المعرفة العملية لا يمكن أن تكون لدى الإنسان إلا إذا سار في الطريق المستقيم وجاهد نفسه فعندئذٍ يحصل عليها . أما من لم يكن كذلك فهو جاهل.

ويرتبط الجهل بأمرين:

الأول عدم معرفة الله تعالى فمن عرف الله لن يطغى لأنه يرى أنّ الله تعالى بكل شيء محيط وعلى كل شيء مهيمن وهو على كل شيء قدير ، وبالتالي يرجع إلى الله تعالى ولا يستطيع أن يفعل استقلالاً من لدن ذاته لأنه يرى الأمر كله لله تعالى.

الثاني هو عدم معرفته لنفسه ، فهناك ارتباط وثيق بين عدم معرفة الله وعدم معرفة النفس والعكس صحيح فإنّ معرفة الله تعالى تجر إلى معرفة النفس ، ومعرفة النفس تستلزم معرفة الله تعالى روي عن علي عليه السلام (من عرف نفسه عرف ربه) [1] ، أي أن الإنسان إذا علم أنه فقير إلى الله تعالى سوف يتعلق بالله تعالى ويسير نحو معرفته والارتباط به تعالى ، إذن هنا أمر جد دقيق هو أن الطغيان ينشأ من عدم معرفة الله تعالى ، وعدم معرفة النفس المؤدي إلى الغرور والكبرياء والذي يترتب عليه عدم التواضع أمام كبرياء الحق تعالى . ولهذا يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير لأنه لا يعرف القبلة الحقيقية له والمطلب الأسنى والأعظم الذي عليه أن ينحو نحوه ويتوجه إليه.

وقد افصحت الروايات والأدعية عن ذلك ففي الدعاء (ماذا وجد من فقدك ؟! وما الذي فقد من وجدك ؟! لقد خاب من رضي دونك بدلا) وهذا المطلب أوضحه العلماء والعرفاء وافصحت عنه الأدعية.

---

١ غرر الحكم: ٧٩٤٦

قوله تعالى (وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

أي أنه أضاع نفسه ، ولم يعرف ربه فاستبدل ما هو خير بالذي هو أدنى فخسر الدارين.

إيضاح قد يتصور بعض أن غير المؤمن يلتذ كثيراً ويهنأ بالحياة الدنيا أعظم من غيره ولكن ذلك غير صحيح ولهذا جاءت روايات لطرد هذا الوهم عبّر بعضها أن المؤمن يشارك غيره في المهنأ ولذات الحياة الدنيا قال أمير المؤمنين عليه السلام (واعلموا عباد الله أن المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الآخرة فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت وأكلوها بأفضل ما أكلت فحظوا من الدنيا بما حظي به المترفون وأخذوا منها ما أخذت الجبابرة المتكبرون ثم انقلبوا عنها بالزاد المبلغ والمتجر الرابح أصابوا لذة زهد الدنيا في دنياهم وتيقنوا أنهم جيران الله غدا في آخرتهم لا ترد لهم دعوة ولا ينقص لهم نصيب من لذة) [1] وفي الحديث أن أحد الزهاد ويدعى عباد بن كثير البصري رأى الإمام الصادق عليه السلام وهو يلبس ثياباً غالية الثمن فقال معترضاً عليه : يا أبا عبد الله ، إنك من أهل بيت نبوة وكان أبوك وكان ، فما لهذه الثياب المزينة عليك؟ فلو لبست دون هذه الثياب . فقال له أبو عبد الله عليه السلام : " ويلك - يا عباد - من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ " [2] وعندما سئل أحد الأئمة: لماذا يلبس ثياباً فاخرة ، وقد كان جده لا يلبس مثل هذه الثياب؟ أجاب الإمام عليه السلام قائلاً: " إن علي بن أبي طالب عليه السلام كان في زمان ضيق ، فإذا اتسع الزمان فأبرار الزمان أولى به " [3] وحتى إذا فقد المؤمن المال فإنه يعيش الاستقرار النفسي بمعرفته لله تعالى ويهنأ بلذة

١ رواه السيد الرضي رضي الله عنه في المختار: (٢٦) من الباب الثاني من نهج البلاغة
٢ الوسائل ، أبواب أحكام الملابس الباب ٧ ، ح ٣.
٣ الوسائل ، ج ٣ ، أبواب الملابس الباب ٧ ، ح ١١

ذكره وشكره . وإذا كان يعرف لذة العبادة ولذة العلم ولذة العمل الصالح كقضاء حوائج المؤمنين فسوف يعيش الوئام مع نفسه والانسجام مع مجتمعه والقرب من الله تعالى لأن اللذة أو الحياة الهانئة لا تختص بالأمور المرتبطة بالجنس أو الطعام بل تتعدى ذلك إلى أمور أخرى لعلها تكون أعظم مما ألفه كثير من الناس.

قوله تعالى (فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى)

أي أنه من أضاع مستقبله الأخروي وآثر الحياة الدنيا فقد أضاع الآخرة وبالتالي فأن مصيره إلى النار.

قوله تعالى (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

هناك تقابل بين المؤمنين الأخيار والكفرة والفجار وهذا التقابل توضحه الآيات المتقدمة فسمات الكفرة والمتكبرين الطغيان والكبرياء وإيثار الحياة الدنيا المؤدي بهم إلى جهنم والعياذ بالله بينما من صفات المؤمنين الأخيار الطيبين الخوف من الله تعالى ونهي النفس عن الهوى والسير في الصراط المستقيم المؤدي بهم إلى أن يرثوا جنات النعيم (فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) وسنقف عند هذه التعبيرات القرآنية الدقيقة التي ترسم لنا ملامحاً كبيرةً يستفيد منها الإنسان سلوكياً وأخلاقياً في تكامله ورقيه ووصوله إلى الله تعال ، فقوله تعالى (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ) وصف للمؤمنين بأنهم يخافون من مقام ربهم ، ومعنى مقام ربهم قيل إن المراد به المواقف المتعددة يوم القيامة فكل موقف يعبر عنه مقام ومعنى الآية حينئذٍ هو الخوف من مقامات يوم القيامة بين يدي الله

ولعل قوله تعالى (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)(الرعد:٣٣) يشير إليه . فقائم أي محاسب ومطلع يجازي كل نفس بما كسبت . وقيل إن المقام يراد به أن المؤمن يعلم بصفات الله تعالى وأنها عين الذات فالمقام هو العلم بصفات الله تعالى فمن علم أن الله يراه ويسمعه ويعلم بخيره وشره حجزه ذلك عن القبيح من الأعمال وقد أوضحت ذلك الآية (مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) وهذا المعنى هو المراد بمن يخاف مقام ربه وينهى نفسه عن الهوى.

وقيل إن المراد بالمقام هو شدة العقاب فيؤاخذ الإنسان على ما يصدر منه من أعمال ، وكل عمل من أعماله له عقاب يترتب عليه ويسمى بالأثر الوضعي ، ومعنى الآية حينئذٍ أنّ الله تعالى يحاسب المرء على أعماله بترتب الآثار عليها . ولعل أقرب الاحتمالات هو الثاني ولهذا جاء في التفسير الروائي عن الصادق عليه السلام أنه تعالى مطلع عليه وهو المراد بعلم الله تعالى به . أما المعنى الثالث فيستلزمه الثاني لأنّه إذا كان الله تعالى عالماً فسوف يحاسب عباده . بل أن الاحتمال الأول يندرج في الثاني أيضاً.

قوله تعالى (وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى)

لماذا الآية عبرت بـــــ (وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى) ولم تقل ترك الهوى ؟! .

تعبيرات القرآن دقيقة وهي تقتضي الإشارة إلى بعض الحيثيات التي لها دخل في الموضـــــوع ذلك أن المؤمنين يتفاوتون في درجاتهم ، فهناك مقامات للأنبياء والرسل والأئمة ، وهؤلاء قد اصطفاهم الله تعالى واجتباهم واستخلصهم لنفسه ولم يجعل للشـيطان عليهم سـبيلاً لكن بقية الناس لم يصـلوا إلى هذه المراتب ويختلفون في درجاتهم ، ولهذا عبر القرآن الكريم بـــ (وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى) أي أنه لا يسـتطيع أن يتغلب على نفسـه دائماً بل أنه قد يتغلب عليه الشـيطان بعض الأحايين ويقترف بعض الذنوب غير أنه سـائر في الصـراط السـوي والمسـتقيم ويتذكر الله تعالى ويسـتغفر لذنبه ويجتنب الكبائر قال تعالى (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَـــــــــيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا)(النساء:٣١) ولهذا عبّر القرآن الكريم أيضاً عن هذا بنحو واضح هو أن طبيعة المؤمن أن ينهى النفس عن الهوى لأنه في حرب مع الشيطان قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)(الأعراف:٢٠١) ومن ذلك نتعرف على أن الآية الكريمة لم تقل ترك الهوى بل قالت (نهى النفس) أي أنه لديه إحساس و ضمير يردع نفسه عن الوقوع في شرك الشيطان فهو دائماً في جهاد مع نفســه وقد أوضــحت الروايات أهمية نهي النفس عن الهوى لأنّ اتباع الهوى هو بداية السـقوط والابتعاد عن الله تعالى روي عن علي عليه السلام (أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَانِ: اتِّبَاعُ الْهَوَى ، وَطُولُ الأَمَلِ فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ ، وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ) [1] . ويريد الامام عليه السلام بالصد عن الحق الصــد عن الله تعالى وعن أخذ تعاليمه وأما طول الأمل فيريد به عليه السلام

١ نهج البلاغة الخطبة ٤٢ : فيها يحذر من اتباع الهوى وطول الامل في الدنيا

أن الإنسان لا يلتفت إلى انقضاء عمره وتصرّم أجله وانتقاله من الدار الفانية إلى الدار الباقية ويحذر عليه السلام من مغبة هذين الأمرين .

قال أحد الشعراء :

إنارة العقل مكسوف بطوع هوى وعقل عاصي الهوى يزداد تنويرا

وفي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام قال (لا تدع النفس وهواها فإن هواها [في] رداها وترك النفس وما تهوى أذاها وكف النفس عما تهوى دواها) [1] أي أن الهوى يؤدي إلى أن تتردى النفس وتصاب بمرض عضال يصعب الشفاء منه . وقوله عليه السلام (وكف النفس عما تهوى دواها) أي أن من أراد أن يداوي نفسه فعليه أن يكف النفس عن الهوى كي تشفى من مرضها وشفاؤها أثر وضعي لترك الهوى ويترتب هذا الأثر حتى لغير المؤمن بحصول النفس على وضوح وشفافية تدرك بهما كثيراً من الحقائق . وهناك رواية توضح ذلك فقد جاء في عهد الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام شخص من بلاد الهند وكان يخبر عن كل ما خبئ في اليد ، فذكر ذلك للإمام عليه السلام فطلبه عليه السلام وخبأ شيئاً في يده وسأل ذلك الهندي عما في يده ففكر ثم أجاب فكان الجواب صحيحاً ، فقال له الإمام عليه السلام حدثت والآن سأضع في يدي شيئاً آخر فمد الإمام عليه السلام يده المباركة خارج المنزل ثم في لمحة أدخل يده وقال له : الآن قل لي ماذا في يدي؟ ففكر الرجل كثيراً ثم قال : قد جلت في هذه الساعة كل الدنيا وقد رأيت كل شيء في مكانه إلا أنه في جزيرة من جزر الهند فقدت بيضة من قن الدجاج الفلاني ، ففتح الإمام عليه السلام يده وقال له: صدقت ثم قال له: قل لي كيف وصلت إلى هذه المرتبة؟ فقال الرجل: كنت أخالف كل ما كانت تطلبه نفسي حتى وصلت إلى

١ الكافي - الشيخ الكليني - ج ٢ - الصفحة ٣٣٦

هذه المرتبة ، فقال الإمام عليه السلام : وماذا تطلب نفسك هل تطلب الكفر أم الإسلام؟ فقال: نفسي ترغب الكفر: فقال له الإمام عليه السلام إذن خالف هواك ، فأسلم ذلك الرجل ثم سأله الإمام عليه السلام : هل ينكشف لك الآن شيء أم لا ؟ فتأمل ذلك الشخص وقال له إني لا أرى شيئاً ، فقال له الإمام عليه السلام : صدقت وذلك لأنك عندما كنت كافراً كنت تعطى لما كنت تبذله من رياضات الأجر عليه ، أما الآن وقد صرت مسلماً فقد سدت عليك أبواب المكاشفات . والرواية وإن لم تصح سنداً إلا أن الواقع يصدقها.

القدوة الحسنة

من الأمور المؤثرة في إصلاح النفس والقرب من الله تعالى الاقتداء بالصالحين فإن من سار على هديهم وفقه الله تعالى للوصول إلى ما يبتغيه وعكسه السير في مسار الطالحين حيث يتأثر في فساده وبعده عن الحق تعالى .

إن مسألة القدوة أكد عليها القران الكريم في قوله تعالى (لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرا) وهي مذكورة ضمناً في القصص القرآني للأنبياء والرسل والصالحين وبالتالي فإن السير على هديهم يوصل إلى ما وصلوا إليه من الخوف من مقام الله تعالى كما عبرت الآية .

وهذه الطرق منفردة أو مجتمعة تنعكس إيجاباً لأنها أسباب للهداية والرشاد ، ومن أفضل المؤثرات في مساعدة النفس على الوصول إلى كمالها العبادة فهي تهيئ النفس لتقوى الله وهي غذاء للروح تجعل الإنسان لديه القدرة لنهي نفسه عن الهوى ، ونريد بالعبادة هنا معناها الخاص وليس بمعنى السير في دائرة التكاليف بنحو عام وإن كان ذلك أعظم تأثيراً ، إلا أن مما لا

شـــــــك فيه أن المعنى الخاص للعبادة بإكثار النوافل وقراءة القرآن والأدعية التـأثير الفـاعـل والكبير في تهـذيـب النفس والقرب من الله تعـالى والبعـد عن الشـيطان والسـوء ، ولعل في بعض آي القرآن الكريم ما يؤكد ذلك قال تعالى (وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ)(الأنبياء:٧٣) وقال تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ)(الذاريات:٥٦) ويظهر تـأثير العبـادة من خلال فهم الارتبـاط الوثيق بين العبادة والمعرفة ، فالعبادة والمعرفة بينهما علاقة تبادلية جد وثيقة بمعنى تأثير كل منهما على الاخر ، وقد روى الامام الصـــادق عليه السلام عن جده الحســين عليه السلام العلاقة التبادلية بين العبادة والمعرفة (أيها الناس ، إن الله عز وجل ذكره ما خلق العباد إلا ليعرفوه ، فإذا عرفوه عبدوه ، فإذا عبدوه اســـــتغنوا بعبادته عن عبادة ما ســواه) [١] فالعبادة تســتلزم معرفة ، ولا يمكن أن تعبد رباً لا تعرفه . والعبادة والمعرفة يســتلزمان الخشــية والخوف من الله تعالى وقد ورد في الحديث عن رســول الله صلى الله عليه وآله : (من كان بالله أعرف كان من الله أخوف) [٢] أي كلما ازداد المؤمن معرفة ازداد خوفاً ، وكلما ازداد خوفاً دعاه ذلك إلى أن يتعرف على مقام ربه وهو ما يعبر عنه بالوازع الديني بمعنى الإحساس بالمسؤولية والشعور بالرقابة الإلهية بوجود ضـــــمير يقظ حي يدعوه إلى الخير جاء في الرواية عن الإمام الباقر عليه السلام (ما من عبد إلا وفي قلبه نكتة بيضـــاء ، فإذا أذنب ذنبا خرج في النكتة نكتة ســوداء ، فإن تاب ذهب تلك الســواد ، وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطي البياض ، فإذا غطى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً ، وهو قول الله عز وجل " كلا بل ران على قلوبهم...") [٣] إذن كلما ازداد عبادة ومعرفة و طاعة لله تعالى كلما ازداد تألقاً ونورانية . وإذا اقترف معصـية غطى

١ بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٢٣ - الصفحة ٨٣
٢ البحار: ٧٠ / ٣٩٣ / ٦٤
٣ البحار: ٧٣ / ٣٢٧ / ١٠ وص ٣٣٢ / ١٧

الجزء النوراني بالظلمة ولهذا لا يتمكن الإنسان مع اقتراف المعصية من القرب إلى الحق لأن نفسه تجره إلى الغي والفساد ولكنه إذا جاء بالحسنات أبعدته عن الهوى وأيقظت ضميره ذلك أن الضمير يصعب موته حتى وإن غطت عليه السيئات فإن شعاعاً منه سيبقى وسيعود إذا أحيي بالطاعة لأنه لو مات بالمعصية لما أمكن أحياؤه.

إذن قوله تعالى (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى) يفصح عن أن الخوف من مقام الله تعالى يتطلب معرفة ، ولا تحصل إلا بأسباب منها الصبر والصوم ، ولهذا جاء في الحديث القدسي (الصوم لي وأنا أُجزِي به أو أُجزَى به)[1] والمعنى في القراءة الثانية أن الله تعالى هو الجزاء للصوم وهذا يعني أنه لا أحد يستطيع ان يعرف ثوابه وهو يؤدي إلى قرب وثيق من الله تعالى ، بحيث لا يكون هناك هوى للنفس يخالف طاعته تعالى ، ويترتب على ذلك (فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى).

قوله تعالى (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا)

ذكرنا فيما سبق أن أكثر آي القرآن الكريم تتحدث عن المعاد وعالم الآخرة لأن مصير الإنسان يرتبط بذلك ، غير أنّ طبيعة الإنسان لا تنسجم مع هذه الحقيقة لأنه يرتبط وثيقاً بعالم الحس والمادة ولهذا قد يكابر ويكذب بيوم القيامة ، من هنا سأل المشركون النبي ﷺ عن وقت حدوثها ، فمرساها في الآية مصدر ميمي يأتي بمعانٍ متعددة منها أن يكون اسم مكان أو زمان وهو هنا اسم للزمان أي أن السؤال عن الوقت الذي تتحقق فيه القيامة ، و مرساها من

١ الكافي: ٤ / ٦٣ / ٦

التشبيه حيث شبّه العالم المادي بالسفينة التي لها رسو ، وهو الوقت الذي تصل فيه إلى الشاطئ وتستقر عنده ، وقد ورد التعبير بهذا المعنى في أكثر من آية في القرآن الكريم منها قوله تعالى (وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا)(النازعات:٣٢) ، وقوله تعالى (وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)(هود:٤١) ويراد به الاستقرار بحدوث القيامة ، والقيامة أمرها من الغيب وهي من الأصول العقدية المرتبطة بالإيمان بالغيب قال تعالى(ألم ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)(البقرة:١-٣) والآيات توضح أن من صفات المتقين الإيمان بالغيب وهو أيضاً له درجات أعظمها الإيمان بالغيب المطلق وهو الله تعالى لأن ذاته لا يحاط بها علماً.

الحكمة من إخفاء العلم بالساعة

وقد أخفي الله تعالى العلم بالساعة لمصالح عديدة يعلم بها هو لعل من أهمها البعد التربوي الذي يوصل الإنسان إلى الله تعالى فجعل أمرها بغتة لا يطلع عليها أحد ليعيش الإنسان متوجهاً إلى الله سالكاً المسلك الصحيح لكونه لا يعلم متى تحدث الساعة . نعم هناك قوانين كونية تتحدث عن لا بدية انتهاء العالم المادي غير أنها لا تستطيع أن تحدد وقتاً لتلك النهاية ولا يعلم بها إلا الله تعالى . والمؤمن على يقين بحدوثها ، أما من يكذب بها فهو يكابر فيها ، وجهله وتكذيبه بها ناشئ من استغراقه ورسوه في الجهل ، ولهذا يسأل (أيان مرساها) ولعل من الأسباب الداعية إلى انكار الساعة والتكذيب بها التعلق بالحياة الدنيا قال تعالى (وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)(الأنعام:٢٩).

وهناك قسم آخر من الناس يعلم بحتمية وقوع الساعة بالرغم من أنه لا يسير في مسار الهدى إلا أنه يعلم بحتمية وقوعها وأن الله تعالى أخفى أمرها لغاية من الغايات لعل منها الاستقرار النفسي حيث يتاح للإنسان أن يرتقي على أصعدة متعددة ليصل إلى درجة من الشوق والتوق إلى لقاء الله تعالى ، وأشارت بعض الروايات إلى ذلك فورد أن الصديقة الزهراء عليها السلام لما أخبرها النبي صلى الله عليه وآله أنها أول من يلحق به ضحكت لشوقها إلى لقاء الله تعالى ، إلا أن أكثر الناس لديهم الخوف من ذلك والهول الشديد الذي قد يصل إلى درجة تتعطل فيها الحياة ولهذا أخفي أمر الساعة لمصالح منها هذه المصلحة وقد كلفنا الله تعالى بتكاليف واراد أن نأتي بها مختارين وغير مقسورين عليها وهذه مصلحة من المصالح المترتبة على إخفاء أمر حدوث الساعة لئلا يلزم من الخوف من حدوثها القريب القسر على الاعمال .

وقد جعل الحق تبارك وتعالى علامات للساعة من جملتها نزول عيسى عليه السلام لتأييد المهدي عليه السلام قال تعالى (وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ) وكذلك بعثة النبي صلى الله عليه وآله قال صلى الله عليه وآله (بعثت والساعة كهاتين - وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى - ثم قال : والذي بعثني بيده إني لأجد الساعة بين كتفي) [1] أي أن الفارق بين بعثته صلى الله عليه وآله وبين قيام الساعة بسيط ، لأنّ الزمن قصير ذلك أن الطول والقصر للأشياء نسبيان فالطويل بالنسبة للقصير عنه والقصير كذلك ، ولهذا فإن تعبيره صلى الله عليه وآله يشير إلى قصر المدة ، والمرء إذا توجه إلى ذلك أدرك قصر حياته وقصر الأزمنة التي مرت على الأقوام وبالتالي قصر المدة الباقية بين بعثته صلى الله عليه وآله والساعة .

١ البحار: ٦ / ٣١٥ / ٢٦

إن ما نراه طويلاً من الزمن لا يمثل إلا مدة مؤقتة فمليون سنة في الزمن مدة بسيطة ، و الأحداث تتالى ولهذا يعبر بعض الموتى عندما يبعثون عن قصر المدة بقولهم (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلا عَشِيَّةً أو ضُحَاهَا) أي كأن الدنيا لم تمر عليهم ولا البرزخ بل مرت عليه ساعات محدودة ثم انتقل منها إلى ذلك العذاب الشديد .

والخلاصة

إن يوم القيامة قريب ولكنه قرب نسبي . وبهذا اللحاظ كانت بعثته ﷺ من علامات الساعة ورغم أن هذه الحقيقة واضحة إلا أنها منكرة وتعد كالوهم لمن لم يؤمن بالله واليوم الآخر لهذا يسأل (أيان مرساها) . ولهذا التساؤل معنيان :

الأول أنه استنكار لحدوثها بمعنى أنك يا محمد ﷺ تتحدث عنها كثيراً لكنها أشبه بالوهم ، إذن هم هنا لا يستفهمون استفهاماً حقيقياً ، وإنما يستنكرون .

الثاني هو أن الاستفهام حقيقي ويريدون أن يصلوا إلى معرفة وقت حدوث القيامة بالتحديد غير أن الله تعالى منعهم ذلك وجعل علمها عنده وحده قال تعالى (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلا هُوَ) .

وقد اتضح مما مرّ أن النبي ﷺ ليس من مهامه تحديد الوقت للساعة وإنما أنيطت به مهمة الإنذار فينذر الناس ويبين لهم أنّ الله تعالى سيجازيهم في يوم القيامة . وقصر الإفراد يراد به ذلك ، فهو ﷺ منذر بالساعة لمن يخشاها ومع أنه ﷺ منذر للجميع لمن يخشى الساعة ولغيره ولا تختص دعوته بمن

يخشى ، إلا أن المراد هنا تبيان الإنذار الذي يترتب عليه الأثر للمنذَر ، وأنه يحتاج إلى شـــرائط من أهمها قابلية المتلقي للتأثر بالإنذار وأن الشـــرط لذلك هو الخشـــية والخوف مما يحدث في الســـاعة ، و الآية الكريمة تكون على وزان قوله تعالى (أَلَم ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) وهذه قاعدة كلية مفادها أن المستفيد من الهداية هو من يريدها ويتفاعل وأياها وهم الأسوياء من الناس الذين يأخذون بالحائطة ويخشون .

الأسلوب الأمثل في الإنذار

النبي ﷺ لا يستخدم الأسلوب التبشيري فقط بل يستخدم معه الإنذار وكلاً الأسلوبين ، أسلوب التشويق والتحفيز وأسلوب التخويف والإنذار يتبادلان التأثير في النفس بلحاظ الأوقات والمراحل المتعددة من العمر ، ولهذا قيل إن من أمن العقاب أساء الأدب لكونه لن يأخذ بالحائطة.

إن الخوف غريزة طبيعية للإنســـان ولهذا يرتب عليها الأثر حتى مع وجود احتمال إلا يتأثر بها ولهذا نرى خوف الجميع من الحيوان المفترس رغم علمهم بأنه لن يفترس الجميع . والنبي ﷺ قرّب للناس فكرة قيام الســـــاعة بموت بعضهم لأن من مات قامت قيامته الصغرى . وبيّن ﷺ ما يحدث فيها من شدائد وأهوال بحيث يحدث الخشـــية والخوف فيهم قال تعالى (يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)(الحج:٢)

كيف تتحقق الخشية ؟

ذكرنا فيما سبق أنها تتحقق بالخوف من الله والعلم به وهناك أمر آخر له أهميته الفائقة في أحداث الخشية وهو العلم بطبيعة الدنيا وتغيراتها ، فهي لا تستقر على حال ومن أمعن النظر وفكر عرف معادلات الكون سيحدث له الخوف من التغيرات الكونية وسيعلم أن هذه التغيرات التي طرأت على غيره فغيرته ستطاله وتغيره كما تغير سواه وسيعلم يقينا بحدوث القيامة وسيخشى ويخاف .

دخل الزمان في حدوث الأشياء المادية

هناك بحث هام للسيد الطباطبائي يرحمه الله خلاصته أنّ أمر الساعة يختلف كلياً عن سائر الأمور الموجودة في عالم النشأة المادية ، والمعهودة لدينا فهذه الأمور المادية الزمن هو جزء من العوامل المؤثرة فيها ولذلك لا يحدث شيء إلاّ وله مدة زمنية ، وهناك وسائط أخرى بالإضافة إلى الزمان فأي شيء يحدث فقبل حدوثه هناك وسائط تتوسط حتى يحدث . فالإنسان والنباتات والحيوانات مخلوقة ضمن سلسلة من العوامل ، كالآباء والأمهات وسائر الأمور الأخرى وهي علل معدة أثرت في وجود وتكوين الأشياء بنحو مباشر وغير مباشر ضمن سلسلة من العلل المعدة ، إذن للزمان دخل في حدوث الأشياء وهناك سلسلة منها لها دخل في حدوثها أيضاً . أما أمر الساعة فيختلف في الأمرين معاً ، فالزمن لا يتوسط في حدوثها وكذلك العلل المعدة أيضاً بمعنى أن أمرها يحدث مباشرة من عند الله تعالى دون واسطة ، أي أنّ القدرة الإلهية اللامتناهية تحدث الساعة بغتة ، وهذا أمر تختلف به القيامة عن سائر الأشياء وهو فارق جوهري ، ولعل التعبير بقوله تعالى (إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا) تعليل لقوله تعالى (فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا) بمعنى أن الله تعالى يبين أن النبي ﷺ لا يعلم بحقيقة

حدوثها لأن انتهاء أمرها يرجع إليه تعالى فلا يعلم بحقيقتها وصفاتها وتعيين وقتها إلاّ الله تعالى ، وليس في وسعك يا محمد ﷺ أن تجيب عن وقت حدوثها ، فالأمر غير خاضع للقوانين التي تدخل في سلسلة تحقق الأشياء.

ثم قال يرحمه الله وليس من البعيد أن تكون الآية في مقام التعليل بمعنى آخر هو أنّ الساعة تقوم بفناء الأشياء وسقوط الأسباب وظهور أن لا ملك إلاّ لله الواحد القهار . وهذا معنى دقيق فنحن الآن ننسب ملكية الأشياء إليه تعالى بالرغم من أن لنا دخل في تحققها بأذنه تعالى غير أن أمر الساعة سيظهر حقيقة واضحة للعيان وأن لا ملك إلاّ لله قال تعالى (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) أي أن الأشياء مقهورة حقيقة له تعالى وجميع الناس يرون في القيامة محدودية الأشياء و قهّارية وهيمنة الحق تعالى عليها .

ثم قال يرحمه الله ولذا لم يرد في كلامه من التحديد إلاّ تحديد اليوم بانقراض نشأة الدنيا أي أنه تعالى أفصح عن هذا المعنى في بعض آي القرآن الكريم بكيفية تحقق القيامة قال تعالى (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ) و قال تعالى (يوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) وقال تعالى (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلا عَشِيَّةً أو ضُحَاهَا) وقال تعالى (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ) . ودلل على المطلب كله بقوله تعالى (ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ).